

أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ
بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ (القرآن الحكيم)





مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١-٢ ، السنـــــة : ٤٣

المحرم – صفر ١٤٤٠هـ ، سبتمبر – نوفمبر ٢٠١٨م

الاشتراكات

- ثمن النسخة : ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولاراً
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولاراً

عنوان المجلة على الانترنت

Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس تحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

الداعي
العـــــدد : ١-٢ ، السنـــــة : ٤٣
المحرم – صفر ١٤٤٠هـ ، سبتمبر – نوفمبر ٢٠١٨م

المحتويات

كلمة المحرر

قانون الدولة اليهودية

في الأسبوع الثاني من شهر يوليو عام ٢٠١٨م صادق الكينيست الإسرائيلي على القرار المثير للجدل، والمعروف بقانون الدولة اليهودية (Jews Nation Bill)، الذي ينص على أن إسرائيل هي الوطن القومي للشعب اليهودي الذي يعود له حصرًا حق تقرير المصير دون غيرهم من السكان. و مصطلح الدولة اليهودية ليس فيض الخاطر أوحديث الساعة، وإنما يرجع ظهوره إلى البيانات الصادرة من المركزية الأوربية والمؤتمرات الصهيونية المنعقدة في الأعوام التي تلت ١٨٩٧م.

وما إن صدرت هذه المصادقة من الكنيست الإسرائيلي على هذا القانوني العنصري حتى سارع كثير من الدول وقياداتها إلى معارضتها -التي لم يتجاوز أثرها حبرًا على ورق- بحجة أنه يفتح الباب على مصراعيه أمام التفرقة العنصرية مع السكان المنتمين إلى الأديان الأخرى من المسلمين والمسيحيين على أرض إسرائيل. ولاشك أن هذا القانون يشكل خطةً مدروسةً تهدف إلى القضاء على هويات السكان من غير اليهود، في حين أن السكان العرب في إسرائيل ظلوا يشكون من ذي قبل التفرقةَ العنصرية في التعامل معهم، واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية.

وألحت أمريكا وربيبتها إسرائيل على الفلسطينيين منذ أكثر من عشر سنوات بقبول فكرة الدولة اليهودية كشرط لاستئناف المفاوضات، و كشرطٍ لأي اتفاق عربي إسرائيلي في المستقبل حول القضية الفلسطينية.

ومما لاشك فيه أن المطامع التوسعية الإسرائيلية لعبت مباركات أمريكا وتأييداتها فيها دورًا ملموسًا. وظلت -أمريكا- توفر كل ما تحتاج إليه إسرائيل منذ نشأتها، فأول من اعترف بإسرائيل هو «هيري تورمين»- الرئيس الأمريكي سابقًا- عام ١٩٤٨م، وحَذا حذوه من جاءه من الرؤساء الأمريكان إلى الرئيس الحالي «ترامب»، الذي وقف ويقف في كل صغيرة وكبيرة بجانب إسرئيل بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، ضاربًا بكافة الأعراف والأخلاقيات الدولية عرضَ الحائط، دون أن يهمه تشوه سمعته وسمعة بلاده أمريكا نفسها بقراراته الأحادية الجانب وبتغاضيه الشنيع عن الفلسطينيين وحقوقهم وقضاياهم.

وظل «ترامب»- انطلاقًا من هيامه الشديد بإسرائيل وولعه بها -على عهده لإسرائيل لابتغاء مرضاتها، وكشفت الصحف والمجلات عن الدور الملموس الذي يلعبه اليهود في الإدارة الأمريكية برئاسة «ترامب». وكان -ترامب- عهد إلى اليهود في حملاته الانتخابية بأنه لن يتأخر- إذا ماتمّ اختياره رئيسًا لأمريكا- عن اعتراف القدس عاصمةً لإسرائيل، وعن الوقوف بجانبها وشدِّ أزرها. وفعلاً حقق ذلك من خلال سياسته التي سار عليها منذ أول يوم دخل البيت الأبيض رئيسًا لأمريكا ليومنا هذا. فليس غريبا أن يتّبع «ترامب» هذه السياسة المنحازة الشاذة التي لايدري مدى أضرارها عليه وعلى بلاده قريبًا أو بعيدًا إلا الله تعالى. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة الرابعة مساء يوم الأربعاء: ١٧/ذي القعدة ١٤٣٩هـ=٣١/ يوليو ٢٠١٨م).

الهجرة، ذكرى تتجدّد على مَرِّ الأزمان

منذ أن بُعِثَ النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– ظَلَّ حريصًا على هداية قومه ودخوله في دين الله، واستغلّ لذلك كلَّ أسلوبٍ، ومارس كلًّا من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ ولكن قريشًا أبت إلّا أن تحارب الله ورسوله وتتصدى للدعوة الإسلامية، و وقفت في طريقها تضع العراقيل، وتزرع الحواجز في طريق تقدم الإسلام في مدينتهم مكة المكرمة، وبالغت في تعذيب كل من آمن به –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– لردعهم عن الإسلام والعودة بهم إلى الكفر. لقد لاقى النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– ومن آمن به صنوف العذاب وأنواع الأذى من الكفار الذين آذَوْهُ على المستويين المادي والمعنوي وبالقول والفعل معًا، فسخروا منه واستهزؤوا به وبالدعوة التي دعا بها، ووصفوه بأنه ساحر، ودعوه شاعرًا، وسَمَّوْه مجنونًا ومفتريًا، وكذّبوه وهو صادق مصدوق، وخَوَّنوه وهو أمين، حتى حاولوا أن يُعْدِمُوه خنقًا، ووضعوا على ظهره سَلَىٰ جزور وهو ساجد، حتى اتفقوا – صادرين عن تخطيط مُبَيَّت مدروس أجمعوا عليه في برلمانهم «دارالندوة» – أن يغتالوه نائمًا على فراشه عن طريق مجموعة مختارة من شباب كل قبيلة حتى يتفرق دمه في القبائل فلا تقدر بنوهاشم على أخذ الثأر وترضى بالدية التي كانت هينة عليهم لقاءَ التخلص من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ودعوته: الداهية الدهياء والمصيبة العمياء التي لم يعرفوها ولا آباؤهم في الماضي.

بعد كل ذلك لم تَعُدْ مكةُ مكانًا صالحًا للدعوة إلى الله؛ لأن النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– بقي فيها طَوَالَ ثلاثة عشر عامًا يقوم بها في أهلها باللين والرفق والحسنى واللطف والحكمة امتثالًا لأوامر الله التي أكّدت عليه بضرورة الاحتراز عن الغلظة في التعامل مع المدعوين إلى دين الله في مكة، فأسلم منهم عدد قليل جدًّا، وبقي أكثرهم يعاندون، ولم يبق هناك أمل في ظهور جماعات جديدة يجوز العمل من أجلها في المستقبل القريب، فلم يبق للرسول –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– مبرر للبقاء فيها بعد أن حشدت قريش كل طاقاتها وإمكاناتها لمواجهة هذا الدين الذي جاءها به من عند ربه.

فلابدّ من البحث عن مكان آخر صالح لهذه الدعوة التي كانت هي للناس كافة ولم تكن لأهل مكة خاصّة. وكان هذا المكان السعيد هو مدينة «يثرب» التي سُمِّيت بعد هجرة النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– إليها بـ«المدينة المنورة» الذي أُرِيَه –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– من قبل الله عزّ وجلّ، فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – عن النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– قال: رأيتُ في المنام أَنِّي أُهَاجِر من مكةَ إلى أرض بها نَخْلٌ، فذهب وَهَلِي – أي ظني –

إلى أنها «اليمامة» أو «هَجَر» فإذا هي المدينة «يثرب». (البخاري: ٣٦٢٢؛ ومسلم ٢٢٧٢).

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال النبي –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– للمسلمين: «إنِّي أُرِيتُ دارَ هجرتكم ذاتَ نَخْلٍ بين لَابَتَين – وهما الحَرَّتَان – فهاجر مَنْ هاجر قِبَلَ المدينة، ورَجَعَ عامّةُ مَنْ كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة». (البخاري: ٣٩٠٦).

وفي رواية للبخاري طويلة، عن عائشة – رضي الله عنها – ... فقال رسول الله ﷺ:

«قد أُرِيتُ دارَ هجرتكم، رأيتُ سَبْخَةً ذاتَ نَخْلٍ بين لَابَتَيْن، وهما الحَرَّتَان، فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة حين ذكر ذلك رسولُ الله –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ورجع إلى المدينة بعضُ من كان هاجر إلى أرض الحبشة» (البخاري:٣٩٠٥).

وقد وَضَعَ اللهُ تعالى في أهل هذه الدار – دارالهجرة – الحبَّ للإسلام ولرسوله وللمؤمنين به من أهل مكة المهاجرين إليها، فقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (الحشر:٩).

وعَجَنَ اللهُ طينتَهم بالصفات العظيمة الجليلة التي جَعَلَتْهم أحسن من عرفتهم الإنسانية تضييفًا وإكرامًا وإيثارًا وتضحية وفداءً لدين الله ورسوله والمهاجرين إليهم، وأكرمهم بالمآثر العظيمة والخصال الكريمة المتمثلة في أن جعلهم أول من ناصر النبي –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وآواه وحماه بعد أن تآمرت عليه قريش وخذلته القبائل كلها.

وسابقوا إلى عرض حمايتهم للنبي – ﷺ – وعهدهم بأنهم سينصرونه ودينه بكل ما لديهم من الأنفس والأموال، فبينما كان النبي – ﷺ – يعرض نفسه على القبائل في العام الحادي عشر للبعثة عند «العقبة» في «منى» لَقِيَ ستةُ أشخاص من الخزرج من «يثرب». هم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله. فقالهم النبي – ﷺ –: «مَنْ أنتم» قالوا: «نفر من الخزرج». قال: «أ من موالي يهود؟» قالوا: «نعم». قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟». قالوا: «بلى». فجلسوا معه. فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: «يا قوم! تعلموا والله إنه للنبي توعدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه». وقد كان اليهود يتوعّدون الخزرجَ بقتلهم بنبي آخر الزمان. فأسلم أولئك النفر، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم. (البداية والنهاية لابن كثير، ج٣، ص١٧٩-٢٠٦) فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم خبر النبي محمد، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيهم ذكر من النبي محمد.

وفي العام المقبل أي العام الثاني عشر للبعثة وَافَى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلًا، فلقوا النبي بالعقبة في «منى» فبايعوه، وكانوا عشرة من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ومعاذ بن الحارث، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر السلمي، والعباس بن عبادة، ويزيد بن ثعلبة،

ورافع بن مالك.. واثنين من الأوس، وهما: عُوَيْم بن ساعدة، ومالك بن التيهان. (البداية والنهاية لابن كثير، ج٣، باب بدء إسلام الأنصار).

وكان نص البيعة كما رواها عبادة بن الصامت: «بايعنا رسولَ الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ليلة العقبة الأولى على أن لا نشركَ بالله شيئًا، ولا نسرقَ، ولا نزني، ولا نقتلَ أولادنا، ولا نأتيه ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نَعْصِيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا، فأُخِذْتُم بحدّه في الدنيا فهو كفارة له، وإن سُتِرْتُم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله، إن شاء عَذَّبَ وإن شاء غفر». وكانت هذه البيعة وفق بيعة النساء التي نزلت بعد ذلك عند فتح مكة. (فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة وبيعة العقبة، حديث رقم ٣٦٧٩).

وعندها بعث النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مصعب بن عمير مع من بايعوه من يثرب، يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، فأقام في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ويصلي بهم. فأسلم على يديه سعد بن عبادة. وأرسل سعدُ بن معاذ أسيد بن حضير، وهما يومئذ سيدا قومهما من بني عبدالأشهل إلى مصعب ليزجره. فذهب أسيد إلى مصعب، وقال له ولأسعد: «ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهَانِ ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة». فقال له مصعب: «أو تجلس فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا قبلتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره؟». قال: «أنصفتَ». فجلس فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، ثم قال: «ما أَحْسَنَ هذا وأجملَه كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟». قالا له: «تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي». فأسلم ثم قال لهما: «إن ورائي رجلًا إن اتَّبَعَكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ». ثم ذهب سعد بن معاذ إلى مصعب وأسلم أيضًا. (السيرة النبوية لابن هشام، بدء إسلام الأنصار، أول جمعة أقيمت بالمدينة، ج١، ص٤٣٦-٤٣٩، ط: مؤسسة علوم القرآن، بيروت).

رجع مصعب بن عمير إلى مكة، وخرج ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من الأنصار في موسم الحج، وقالوا له: «يا رسول الله نبايعك؟» فقال لهم: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة» (المستدرك على الصحيحين، كتاب الهجرة الأولى، إلى الحبشة، ذكر بيعة العقبة مفصلًا، ج٣، ص٥٣١، ط: دار المعرفة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)

وقد سميت بـ«بيعة الحرب» لأنّه كان فيها البيعة على القتال والذي لم يكن شرطًا في البيعة الأولى: فعن عبادة بن الصامت قال: «دعانا رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فبايعناه فكان فيما أخذ علينا، أن بايعنا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمرَ أهلَه. قال: إلّا أن تروا كفرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه بُرْهَانٌ» (صحيح البخاري:٣٥٣٦).

فبايعوه رجلًا رجلًا بدءًا من أسعد بن زرارة وهو أصغرهم سنًّا. وكان الرجال تصفق على يد النبي بالبيعة. أما الامرأتان اللتان حضرتا البيعةَ مع أزواجهما فقال لهما النبي: «قد بايعتُكما إني لا أصافح النساءَ». وكان ذلك في شهر ذي الحجة من العام الثالث عشر للبعثة قبل الهجرة إلى المدينة بثلاثة أشهر الموافق يونيو ٦٢٢م.

ثم قال لهم النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَخْرِجُوا إليّ منكم اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا: تسعة من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد ا لله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو؛ وثلاثة من الأوس، وهم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر. وقال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي».

وذكر ابن كثير أن من حضر بيعة العقبة الثانية أحد عشر رجلًا من الأوس، وهم: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان، وسلمة بن سلامة بن وقش، وظهير بن رافع، وأبو بردة بن نيار، ونهير بن الهيثم، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر، وعبد الله بن جبير، ومعن بن عدي، وعويم بن ساعدة.

واثنان وستون رجلًا وامرأتان من الخزرج، وهم:

أبو أيوب الأنصاري، ومعاذ بن الحارث، وعوف بن الحارث، ومعوذ بن الحارث، وعمارة بن حزم، وأسعد بن زرارة، وسهل بن عتيك، وأوس بن ثابت، وزيد بن سهل، وقيس بن أبي صعصعة، وعمرو بن غزية، وسعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد ا لله بن رواحة، وبشير بن سعد، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة، وخلّاد بن سويد، وعقبة بن عمرو البدري، وزياد بن لبيد، وفروة بن عمرو بن وذقة، وخالد بن قيس بن مالك، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعباد بن قيس بن عامر، والحارث بن عامر، والبراء بن معرور، وبشير بن البراء بن معرور، وسنان بن صيفي بن صخر، والطفيل بن النعمان بن خنساء، ومعقل بن المنذر بن سرح، ويزيد بن المنذر بن سرح، ومسعود بن زيد بن سبيع، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة، ويزيد بن سبيع، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة، ويزيد بن خذام بن سبيع، وجبار بن صخر بن أمية، والطفيل بن مالك بن خنساء، وكعب بن مالك، وسليم بن عامر بن حديدة، وقطبة بن عامر بن حديدة، ويزيد بن عامر بن حديدة، وأبو اليسر كعب بن عمرو، وصيفي بن سواد بن عباد، وثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي، وعمرو بن غنمة بن عدي بن نابي، وعبس بن عامر بن عدي، وخالد بن عمرو بن عدي بن نابي، وعبد الله بن أنيس، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وجابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وثابت بن الجذع، وعمير بن الحارث بن ثعلبة، وخديج بن سلامة، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، والعباس بن عبادة بن نضلة، ويزيد بن ثعلبة بن خزمة، وعمرو بن الحارث بن كندة، ورفاعة بن

عمرو بن زيد، وعقبة بن وهب بن كندة، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأم عمارة نسيبة بنت كعب، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي.

وبما أن بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية كانتا إعلانا صارخًا من الأنصار أهل يثرب للوقوف بجانب محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ودعوته بكل ما عندهم من غالٍ ورخيص، ظنت قريش ذلك تحدِّيًا لهم واضحًا؛ ولذلك ذهب زعماؤهم إلى أهل يثرب وسَجَّلُوا لديهم احتجاجهم على البيعة؛ ولكن مشركي الخزرج كانوا لايعرفون شيئًا عن هذه البيعة فأنكروا ذلك. ولما عاد زعماء مكة تأكدوا من صحة الخبر، فطاردوا المسلمين المبايعين، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فأما المنذر فاستطاع الهروبَ. وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، فجاء جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم، حيث كان بينهما وبين سعد تجارة وجوار، وتشاور من الأنصار حين فقدوا سعدًا أن يكرّوا إليه، فإذا هو قد طَلَعَ عليهم، فوصل المبايعون جميعًا إلى المدينة. (السيرة النبوية لابن هشام، بدء إسلام الأنصار، خلاص ابن عبادة من أسر قريش، وما قيل في ذلك من شعر، ج١، ص٤٥٢، مؤسسة علوم القرآن، بيروت).

وبذلك صارت «يثرب» أرضًا خِصْبَة للدعوة الإسلامية؛ لأن الله تعالى ألان قلوب أهلها للإسلام، وحَبَّبَ إليهم الإيمانَ، وثَبَّتَهم على نصرة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ولم تَكْتَفِ قريشٌ بإيقاع أشدّ أنواع الأذى عليه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والمؤمنين به؛ بل كان من أواخر مكيداتهم اتفاقهم على قتله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في فراشه، وهنا أذن الله تعالى لرسوله -ﷺ- بالهجرة إلى المدينة، فأتى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى بيت أبي بكر الصديق، وأخبره بعزيمته على الهجرة، ونَفَّذَها في صحبته. وذلك كما تحدثت عن ذلك عائشة – رضي الله عنها – في تفصيل واستيعاب:

قالت: ... فقال النبي -ﷺ- للمسلمين: إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ – وَهُوَ الخَبَطُ – أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ... ثم قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ. قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ [أي: أريد المصاحبة] بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِالثَّمَنِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ. قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ [أي: حاذق سريع الفهم] فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ [أي يخرج من عندهما آخر الليل] فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ. وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ. وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ... وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ المُدْلِجِيُّ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ. قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا، انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي المَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ فَخَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا [المراد أنه خرج خفية] فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الاِلْتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي [أي لم يأخذا مما معي شيئًا] وَلَمْ يَسْأَلاَنِي إِلَّا أَنْ قَالَ: أَخْفِ عَنَّا. فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ. ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ [أي حصن] مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ [هو الموضع الذي يجفف فيه التمر] لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا: لَا، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ:

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ

فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَالْمُهَاجِرَهْ

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ تَامٍّ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ. (رواه البخاري:٣٩٠٦).

على أن يثرب كان بها أقارب النبي -ﷺ- وأخواله؛ حيث كان أبوه عبد الله بن عبد المطلب مُصَاهِرًا فيهم، فكانت أمه «آمنة» بنت وهب منهم من بني النجار، فكان يرجو أن يساندوه ودينه ودعوته.

ولم يكن الإسلام مجرد عبادات، وإنما هو دين شامل يعالج بأحكامه وتعاليمه جميع مشاكل الحياة، على جميع الأصعدة: الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والساسية، فهو يدعو دائمًا – من خلال دعوته إلى عقيدة التوحيد وبناء الروح والقيام بالعبادات والأحكام – إلى إنشاء مجتمع إنساني

سياسي تُطَبَّقُ فيه جميع أوامر الله ونواهيه في السلوك والمعاملات والأخلاق.

ولكن أهل مكة لم يتيحوا له عبر ثلاثة عشر عامًا من إقامة هذا المجتمع الإسلامي الإنساني الآمن الذي كان يرغب فيه، فكان لابد من الانتقال إلى ساحة يستطيع فيها بناء مثل هذا المجتمع والدولة، حتى يعمل فيه المسلمون - في حرية تامة وفي نجوة من الاضطهاد والتعذيب والترويع آمنين على أنفسهم وحياتهم وأعراضهم وفي هدوء واستقرار وبعد عن ملاحلقات قريش - بدينهم وعقيدتهم، ويبلغون رسالة الله إلى أرجاء المعمورة، ويطهروا الجزيرة العربية من عبادة الأوثان والأصنام والإشراك بالله.

ومن هناك كانت الهجرة، التي حقق بها النبي - ﷺ- عالمية رسالته، التي كانت موقوفة على نظام سياسي وكيان اجتماعي يناصرها نظام عسكري في مكان طيب أمين فطر أهله على نعومة الأخلاق، ولين الجانب، وحبّ الله ورسوله ودينه، يصلح لصياغات الطاقات الإسلامية في إطار دولة تأخذ على عاتقها الاستمرار في المهمة، بخُطًى أوسع، وإمكانات أعظم من إمكانات أفراد تنتابهم شرور الوثنية من الداخل، وتضغط عليهم قيم الوثنية من الخارج، ويصرف طاقتهم البناءة اضطهاد قريش بدلًا من أن تمضي هذه الطاقات في طريقها المرسوم؛ لذلك استمرّ النبي - ﷺ- على بذل الجهد البشري الكامل في البحث والتخطيط للهجرة. (خطوات في «طريق الهجرة»: د. عماد الدين خليل، ص١٩-٢٠).

ولم يهاجر، حتى أُذِنَ له بذلك، ولم يهاجر حتى هاجر جميع أصحابه حتى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الشجاع القوي الجريء الذي كان يخافه الشيطان، فلم يبق في مكة إلا هو وأبوبكر وعلي رضي الله عنهما.

ولم يهاجر علنًا، وإنما هاجر اختفاءً بأمر من الله وتخطيط منه ألهمه الله، ولم يسلك إلى المدينة الطريق المطروق المعروف الذي كان يسلكه أهل مكة إليها، وإنما اختار غيره من الطريق تمويهًا على كفار مكة.

ولم يقطع الطريق إليها مباشرة ولم يتوجه إليها توًّا وإنما اختبأ هو وصاحبه أبوبكر في غار ثور على نحو أربعة كلو مترات في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام. لمدة ثلاثة أيام، حتى هدأت قريش بعد مبالغتها في البحث عنهما، وقد وصلوا إلى فم الغار فعلًا؛ ولكن الله اللطيف الخبير العليم الحكيم ردّهم عنه.

وقد لاحقهم رسول قريش المغرم بالجائزة التي أعلنتها لمن يردّ عليها محمدًا وصاحبه حيين أو ميتين: سراقةُ بن جعشم؛ لكنه رغم وصوله إليهما لم يتمكن من تحقيق غرضه، لأن أحدًا على وجه الأرض لن يغلب من كان الله ناصرَه ومعينَه.

فالهجرة تعطينا الدرسَ العظيم، وهو أن نتوكل على الله ونثق به، وإلى ذلك نقوم بالتخطيط والدراسة والتبييت في الأمور الهامة فيما يتعلق بديننا ودنيانا.

وهي ذكرى تتجدد على مر الأزمان.

(تحريرًا في الساعة الواحدة ظهرًا من يوم السبت: ٢٢/شوال ١٤٣٩هـ الموافق ٧/يوليو ٢٠١٨م).

نور عالم خليل الأميني
nooralamamini@gmail.com

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

فائدة:

كان هذا الحكم في أول الأمر فلما نزلت آية المواريث وتقررت فروض النساء، وتقررت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا، نسخ هذا الحكم.

فائدة:

أي لاجناح عليكم أيها الورثة، إذا خرجن قبل الحول من قِبَل أنفسهن، وفيما فعلن في أنفسهن بالمعروف وبما يوافق الشرع من التزوج أو لبس الثياب الحسنة أو الطيب فلاجناح عليهن في ذلك.

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

فائدة:

سبق الأمر بالمتعة للمطلقة – أي الكسوة – فيما إذا طلقها قبل أن يمسها ولم يسمِّ لها مهرا، و هذه الآية تعمم هذا الحكم لهن جميعا إلا أن المتعة مستحبة- غير واجبة- لجميع المطلقات، وأما في الصورة الأولى فتجب المتعة.

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

فائدة:

أي كما بين الله تعالى أحكام النكاح والطلاق والعدة هنا يبين كذلك أحكامه وآياته بكل وضوح، لعلكم تفهمون فتعملون بها، وإلى هنا تنتهي أحكام النكاح والطلاق.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

فائدة:

هذه قصة من قصص الأمم الماضية، حيث فرّ آلاف من الناس بأهليهم من الوطن، خوفًا من

العدو وجبنًا عن الحرب، أو خوفًا من الوباء ولعدم التوكل على القدر واليقين به، ثم ماتوا جميعًا في بعض طريقهم بأمر الله تعالى، ثم بُعِثوا بعد سبعة أيام بدعوة نبي من الأنبياء، ليتوبوا. وإنما ذكر هذه الحالة هنا تحذيرًا لهم من أن يقصروا في محاربة العدو أو في إنفاق أموالهم في سبيل الله حبًا للنفس والمال. ويعلموا أنه لامناص لهم من الموت إذا قضاه الله تعالى عليهم، وأنه إذا أراد حياة أحد بعثه كلمح بالبصر، وما أهون عليه وقاية الحي من الموت، فالفرار من الجهاد – امتثالًا لأمره- خوفًا من الموت، والإمساك عن الصدقة والإحسان إلى الناس، أو العفو والفضل مخافة الفقر والعوز يجمع بين الفسوق والحمق.

وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

فائدة:

أي حيث علمتم أن أموالكم وأنفسكم بيد الله تعالى، فقاتلوا المشركين ابتغاء مرضاة الله، ولإعلاء دينه، واعلموا أن الله تعالى (سَمِيْعٌ) يسمع أقوال المتحايلين، (عَلِيْمٌ) يعلم مخططاتهم، وأنفقوا في سبيل الله تعالى أموالكم، ولاتخافوا العوز والضيق؛ فإن القبض والبسط بيد الله تعالى، وإليه ترجعون.

و(قَرْضًا حَسَنًا) ألا يطالب المدين، ولايتبعه منًّا، ولايطلب منه عوضًا، ولايحتقره. وإقراض الله تعالى هو الإنفاق في الجهاد أوالإنفاق على المحتاجين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

فائدة:

تأكد بهذه القصة ما ذكر آنفا من بسط الله تعالى والقبض أي إعطاء الفقير الملك، وسلب الملِك ملكَه، و إعزاز الضعيف، وتضعيف القوي.

فائدة:

سارت بنو إسرائيل سيرة حسنة لمدة من الزمان بعد موسى عليه السلام، ثم فسدت نواياهم، فتسلط عليهم عدو كافر اسمه جالوت، وشرَّدهم من المدينة، ونهبها، واستعبدهم، ففرّت بنو إسرائيل ولجأوا إلى بيت المقدس، وكان ذلك على عهد النبي شمويل، وطلبوا منه أن يجعل عليهم ملكًا، ليجاهدوا معه في سبيل الله تعالى.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ

طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةً مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

فائدة:

لم يرث طالوت السلطة عن أبيه، وكان فقيرًا كادحًا، فلم يروه- بنو إسرائيل- كفأً للملك و السلطة، و رأوا أنفسهم أحق بالملك منه لما لهم من المال والثراء، فقال النبي لهم: ليس الملك حكرًا على أحد، و أعظم ما يتطلبه الملك السعةُ في العقل والجسد، وطالوت خير منكم فيهما.

فائدة:

سمعت بنو إسرائيل ذلك فقالوا: أرنا آية على ملكه غير هذا، حتى لايريبنا شيء في ذلك، فدعا النبي الله تعالى أن يري آية أخرى على ملك طالوت.

وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

فائدة:

كانت بنو إسرائيل ترث أبا عن جد صندوقًا، يحمل بقايا موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل، فإذا حضروا القتال قدَّموه، فينصرهم الله تعالى ببركته، فلما غلب جالوت سلبهم ذلك الصندوق، فلما أراد الله تعالى أن يرد عليهم الصندوق قدَّر البلاء والمحن في كل مكان كان الكفار يحملونه إليه، حتى هلكت خمس مدائن من مدائنهم، فاضطروا إلى أن يخرجوه على بقرتين ثم وجهوهما إلى باب طالوت، فأيقنت بنوإسرائيل – حين شاهدوا هذه الآية – بملك طالوت. وخرج طالوت بجيشه إلى جالوت، وكان الحر شديدًا يومئذ.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

فائدة:

فاستعدَّ الجميع للخروج مع طالوت لهوى في النفوس، فقال لهم طالوت: لايخرج إلا الشاب النشيط الفارغ، فكانوا ثمانين ألفًا، ثم أراد طالوت أن يختبرهم، ولم يجدوا ماءً في بعض منازل الطريق، ثم وصلوا إلى نهر في منزل آخر، فقال لهم طالوت:

لايصحبني إلا من يغرف غرفة بيده، فلم يبق معه إلا ثلاث مئة وثلاثة عشر، وفارقه من سواهم. فكان من غرف غرفةً بيده شفى غلته، وأما من لم يكتف بغرفة واحدة فازداد عطشًا، وعجز عن مواصلته الطريق معه.

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

فائدة:

(وَ لَمَّــا بَــرَزُوْا لِجَــالُوْتَ) أي برز الثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا، وكان منهم والد داود، وستة من إخوانه، وداود نفسه، وعثر داود في بعض الطريق على ثلاثة أحجار، فقالت: احملنا نقاتل جالوت. وبرز جالوت نفسه للقتال، وقال: أكفيكم جميعًا، فبارزوني. فطلب شمويل والد داود وقال له: اعرض علي أبناءك، فعرض عليهم ستة من أبنائه، وكانوا طوال القامة، ولم يعرض عليهم داود، فقد كان قصير القامة، ويرعى الغنم، فطلبه النبي، وقال له: تقتل جالوت؟ فقال: أجل، ثم برز لجالوت، فوضع الأحجار الثلاثة في المقلاع، ورمى بها إلى جالوت، وقد حسر عن جبينه وغطى جسده كلها بالحديد، فأصابت الأحجار جبينه، وخرج من ورائه، وفرّ جيش جالوت، وانتصر المسلمون، ثم زوجه طالوت ابنته، وخلف داود جالوت في الملك، فتبين أن الجهاد مستمر من قديم الزمان، وفيه رحمة من الله تعالى كبيرة ومنة عظيمة، ويقول الجهلة: ليس القتال من دأب الأنبياء.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

فائدة:

قصة بني إسرائيل هذه التي سبقت أي خروج الآلاف منهم، وموتهم فجأة ثم بعثهم، وتولي جالوت الملك، آية من آيات الله تعالى تتلى عليك، وإنك رسول من رسل الله تعالى، أي أنت نبي مثل الأنبياء الذين سبقوا؛ حيث تتلو هذه القصص الراجعة إلى القرون الماضية بالحق، ولم تطلع على كتاب ولا سمعت من أحد من البشر.

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

فائدة:

هـؤلاء الرسـل الـذين سـبق ذكـرهم فـضَّلنا بعضهم على بعض، فمنهم من كلمهم الله تعالى، مثل آدم وموسى، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ومنهم من بعث إلى قوم بعينه، ومنهم من بعث إلى قرية بعينها، ومنهم من بعث إلى العالم كله، مثل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعطينا عيسى المعجزات البينات، مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك، وقوّيناه بروح القدس وهو جبرئيل عليه السلام بإرساله إليه.

فائدة:

ولوشاء الله تعالى ما اقتتل هؤلاء- الذين آمنوا بهؤلاء الأنبياء، وعلموا ما جاء به نبينا محمد ﷺ من الأحكام الواضحة والآيات البينات- فيما بينهم ولا خالفوا، ولم يتفرقوا إلى مؤمن وكافر، ولكن الله تعالى فاعل مختار يفعل ما يشاء، ولايخلو فعله من حكمة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

فائدة:

شرحت هذه السورة كثيرًا من الأحكام الخاصة بالعبادات والمعاملات التي يشقّ على النفس امتثالها، ويعزّ عليها، وأشق الأعمال على نفس المرء إنفاق المال والنفس، ومعظم الأحكام الإلهية تخص إما النفس وإما المال. وحب المال أوالنفس هو الذي يحمل العبد على المعاصي في معظم الأحوال، فكأن حبهما أصل الذنوب و جماع الآثام، والنجاة منه يورث التيسير في كافة الطاعات، فناسب بيان القتال والإنفاق بعد ذكر هذه الأحكام، فذكر الأول في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ وَاعْلَمُوْا اَنَّ اللهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾ [البقرة:٢٤٤]، وذكر الثاني في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضٰعِفَه لَه اَضْعَافًا كَثِيْرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ [البقرة:٢٤٥]، ثم أكّد الأول بقصة طالوت، وأراد تأكيد الثاني بقوله: ﴿اَنْفِقُوا مِمَّارَزَقْنٰكُمْ الخ﴾، وفصّل الإنفاق وأكده أكثر؛ لأنه –الإنفاق- يتوقف عليه كثير من الأحكام، فالركوع الآتي يتحدث في معظمه عن الثاني وهو الإنفاق، وحاصل المعنى أن فرصة العمل لازالت قائمة، وأما الآخرة فلا عمل فيها ولاينفع المعرفة بأحد، ولاينقذ أحدٌ غيره بالشفاعة، ما لم يُطلِق سراحُه مَنْ أخذه وحبسه.

فائدة:

أي ظلم الكفار أنفسهم، فأصبحوا –بنحسه- لاينفعهم خلة أحد أو شفاعته.

* * *

أثر الوعي السُّنني في الإحياء الحضاري

بقلم: **الدكتور رشيد كهوس** (*)

إن السنن الإلهية هي الميزان الذي نحكم به على سائر الأمور، والمقاس الذي نقيس به كافة الأحوال، وهي الفلسفة القرآنية التصورية للكون والحياة، الناظمة للعلاقات بين مختلف التجمعات البشرية والأنساق الحضارية، وهي مفاتيح لفهم تدفق الحياة والوجود وحركة التاريخ وتشكُّل المصائر... لذلك توقف صلاح المجتمعات البشرية وفلاحها ونهوضها وسقوطها على مدى اهتدائها بهدايات السنن، وامتثالها بأحكامها، وعملها بمقتضياتها، والسير في طريقها المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

لكن على الأمة أن تستقري آيات الكتاب المسطور (القرآن) وآيات الكتاب المنظور (الكون) – كما فعلت مع فقه الأحكام – لاستكناه كلمات الله التامات وعهوده البينات، واستخراجها في قواعد ذات موضوع واحد حتى تلم بجل السنن في الموضوع الواحد؛ فتمضي على بينة من ربها بكل ثقة وعزم وحزم نحو غاياتها الكبرى (عمارة الأرض– والنهوض بأمانة الاستخلاف– وعبادة الله تعالى).

هذا والأمة لا يستقيم حالها، إلا إذا فهمت هذه السنن الإلهية، وانسجمت حياتها وتكيفت معها. ومتى أعرضت عنها وتنكبت هديها جهلا أو غفلة أو تهاونًا أو عنادًا واستكبارًا؛ فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها دون تخلف أو محاباة.

ومن ثم فقد أصيبت الأمة المسلمة اليوم بذُلٍ وهوان، وتفرقٍ وخذلان، وتكالب الأعداء عليها من كل حدبٍ وصوب، فنهبوا ثرواتها، وسلبوا خيراتها، جزاءً وفاقًا على تنكُّبها عن سنن العمران والاجتماع البشري، فتقاعست الهمم ونكست الرؤوس وتقاعد الناس عن بحث سبل الخلاص، فلا تكاد تجد إلا الأماني المعسولة، وانتظار السنن الخارقة للعادة دون الأخذ بسنن الله الجارية وعدم التعامل معها بشكل صحيح وإغفالها وعدم إدراك كنهها والتقصير المعرفي بها مما أدى إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر

(*) أستاذ ومنسق فريق البحث في السنن الإلهية بكلية أصول الدين بـ«تطوان» جامعة عبد المالك السعدي، المغرب.

خطواتهم في طريق البناء والرقي والازدهار، حتى صاروا غرضًا للغزاة الذين يتربصون بهم الدوائر من كل حدب وصوب.

ولذلك يعتبر الزيغُ عن سكة الوعي السنني، والعدول عن كشف ما تضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة وتنأى عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه الهمم إليه مما أورثنا التأخر عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.

وإن عملية الإحياء والتجديد تحتاج إلى الوعي السنني، وعيًا يهدي إلى سبيل الرشاد، يحيي الأمة ويكشف عنها الغمة، ويزيح عنها الظلمة، وعلى ضوئه وفي نوره تبني حضارتها الزاهرة، كما فعل سلفنا الصالح لما تدبروا القرآن الكريم تدبرًا سننيا جعلهم على رباط وثيق بسنن الله وقوانينه. فمنها استمدوا الخِبرة والأسوة، ومنها استقوا الرحمة والحكمة، وبفقهها بنوا مجتمعًا إسلاميًا صالحًا ومنعوا أنفسهم وأمتهم من السقوط في مستنقع الهلاك، وحفظوها من معاول الهدم.

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون –رحمه الله– في سنة الله في الأمم والأفراد والجماعات: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة؛ وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[سورة غافر:٨٥]»[١].

وبناء على ذلك فإن الإنسان حين لا يهتدي بسنن الله في العمران والاجتماع البشري، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله يميل به هواه؛ لأنه فقد الميزان، فصار سهلًا عليه أن يميل مع هواه حيثُ لا يخشى سنة ولا علما. فكيف يخشاها!... وهو لم يشعر بقوانينها في الحياة، وأسلوب كشفها للباطل! ... فلذا نجد أن ضيق نظره، والمحدودية في إدراكه، يسهلان عليه اتباع الظنون وما تهواه نفسه، دون أن يخشى نكيرا[٢].

والفترة الحرجة التي تجتازها أمة الإسلام اليوم تحتاج إلى رؤية واضحة لتاريخها يضيء لها معالم الطريق وآفاق الطموح.

ونحن أمة عريقة مرت بها على مسار تاريخها الطويل عصور ازدهار وانحطاط، سايرت يقظتها ووعيها، أو غفوتها وخمولها، وهي لا تستطيع أن تحمي وجودها وتتابع سيرها على مراقي تقدمها، ما

لم تستقرئ ماضي خطواتها على درب الزمن، وتدرك سر قوتهــا وبقائهــا، وعوامــل ضــعفها وذرائــع تخلفها[٣].

إن ما تعيشه الأمة المسلمة اليوم من تفكك وانحطاط وانهيار... لا يرجع إلى النص القرآني؛ بل إلى الواقع الاجتماعي الذي لم يستنر بسنن الله في الاجتماع البشري، إضافة إلى ضعف علاقة المسلمين بالقرآن فهمًا ووعيًا وتدبرًا.

ولذلك لم يكن المسلمون على مستوى الأمر الإلهي (اقرأ) الذي ربط بين قراءة الكتاب المنظور (الكون) وقراءة الكتاب المسطور (القرآن)، فجعل القراءة باسم الله الذي خلق الإنسان من علق والذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، فلم يفد المسلمون لا من قراءة المسطور ولا من قراءة المنظور، فجهلوا السنن الإلهية التي تحكم الحياة، وتوقفوا عن النظر والقراءة الواعية والسير في الأرض استنباطا لسنن الاجتماع والعمران الحضاري.

ولقد أدرك سلفنا الصالح مغزى السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم في استشراف المستقبل الزاهر بالنظر إلى أن هذه السنن ثابتة ومطردة لا تحابي أحدًا ولا تتخلف عن مسيرها إلا وفق علم الله تعالى وحكمه وحكمته ومشيئته، ولقد حضوا الأمة وحثوها على وجوب التفكر في الكتاب المنظور وتدبر الكتاب المسطور والنظر بعين البصيرة إلى الآيات المبثوثة هنا وهناك، للاستفادة منها، والاستنارة بنورها والسير على منهاجها لبناء مستقبل أمة الإسلام.

إن القرآن الكريم مليء بالسنن الهدائية الكفيلة بأن تحيي الأمة وتنشئ جيلا صالحا يسير سويا على صراط الله المستقيم، لكن المشكلة ليست في غياب المنهاج الذي يضبط؛ ولكن في العقل الذي يدرك ويعي والقلب الذي يتحرك والهمة التي تعمل وتنفذ ما أسفر عنه تدبر سنن القرآن وآياته وهداياته.

إن الجيل الخالد من الصحابة رضي الله عنهم ما تحققت له السيادة والريادة والصدارة؛ إلا بالوعي السنني واستيعابه له استيعابًا عمليًا، فكان يربط العلم النافع بالعمل الصالح، من هنا استطاعوا رضي الله عنهم أن يبنوا عمرانًا بشريًّا وحضارة إنسانية وينشئوا جيلًاقرآنيًا خالدًا، ينشر نور الإسلام وسلامه ورحمته وتسامحه وتعايشه في ربوع الأرض كلها.

وإن واقع الأمة المسلمة اليوم محزن لهجرانها للقرآن الكريم قراءةً وتدبرًا ووعيًا، حتى كاد ينطبق عليها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ [سورة البقرة من الآية: ٧٨]، أي لا يعلمون من الكتاب إلا التلاوة في المناسبات والقراءة على الأموات، فلا يعرفون معانيه وسننه ولا يتدبرون آياته.

وهكذا ركزت الدراسات القرآنية على جانب ضيق من علوم القرآن، وألفت فيه مجلدات طوال، وشروحات كثيرة، وإن كانت له أهميته؛ لكنها أغفلت جانبا مهما - (والذي يمثل أزيد من ٩٠٪ من آيات القرآن الكريم)- من آيات تحث العقل البشري على النظر والتدبر والقراءة المقاصدية الحضارية الواعية للكون والسير في الأرض وأخذ العبرة من الأمم الغابرة واكتشاف سنن الاجتماع والعمران الإنساني وغير ذلك.. وكان من نتائج ذلك الفصل أن غاب الوعي السنني، وتحول القرآن إلى وسيلة للتزيين أو القراءة على الأموات أو لعلاج الأمراض المستعصية وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه!؟ وقد نتج عن ذلك اضطراب في منهج التعامل مع القرآن الكريم فهما وتطبيقا.

والقرآن الكريم ذكر لنا أحوال الأمم السابقة والمجتمعات الغابرة، لكن المسلمين يمرون على تلك الآيات القرآنية ولما يتدبروها، يحدثهم القرآن عن أمم اندثرت لأنها لم تأخذ بسنن البقاء، لكن المسلمين يسيرون على نفس سنن الزوال ولم يتعظوا بغيرهم من الأمم...

ومع ذلك فإن سنن الله سائرة بالجميع فقهوا ذلك أم جهلوا، ومن يسمع كلام الله ويدبره ويصدق كلمته ويستنر بحكمته تعالى يستطعْ وحده أن يساير سنن الله في خلقه على بصيرة من حتمية القدر، وهي غيب يؤمن به، على بصيرة أيضا بارتباط النتائج بالأسباب، وارتباط نصرة الله للعباد بنصرة العباد لله.

ولهذا فتدبر سنن الله في القرآن الكريم كفيلة بأن تكتشف مواطن الخلل وتحصر آلام الحاضر وهزائمه ونكساته وانكساراته في أبعادها النسبية.

لذلك فالقراءة السننية الواعية لآيات القرآن الكريم والوقوف عندها -بهذه النظرة الثاقبة والعقلية الواعية- تستطيع الأمة أن تدرك سنن الازدهار الحضاري والرقي الاجتماعي والاستمرار والاستقرار فتأخذ بها، وتدرك سنن الهزيمة والتدمير والانهيار والانمحاق فتبتعد عنها، «فمن عرف سنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى بخلاف من يجهلها؛ لأن من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله ﷻ فإنه يكون في حيرة وقلق لا يعلمه إلا الله!!»(٤).

❊ ❊ ❊

الهوامش:

(١) المقدمة، ص٣٥.
(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص٢١٣.
(٣) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص٢٦١.
(٤) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي، ٢٣/١.

❊ ❊ ❊

أخلاق العالم

بقلم: الشيخ: خالد بن جمعة بن عثمان الخراز

للعالم أخلاق وآداب يجب أن يتصف بها، وهي ما يعرف بسمت العالم وشمائله، وأخلاقه التي ينبغي أن يتصف بها، فالسمت الحسن في جميع الأحوال هو المسلك الشريف والمروءة العالية. ومنها:

١ - التواضع:

التواضع لغةً: مصدر تواضع أي أظهر الضَّعةَ، وهو مأخوذ من مادة (وضع) التي تدل على الخفض، والتوَاضُعُ: التذَلُّلُ. أما في الاصطلاح فهو: إظهارُ التنَزُّلِ عن المرتبة لمن يُرادُ تعظيمُهُ، وقيل: هو تعظيمُ مَن فوقَهُ لفضله[١].

قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧].

وعن أَبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «مَا نَقَصَت صَدَقَة من مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبدًا بِعَفوٍ إلا عِزًا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحد لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ الله»[٢].

عن عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إن اللهَ أَوحَى إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا حَتى لا يَفخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبغ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[٣].

وعن الرَّبيع بن أنسٍ في قول الله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان:١٨] قال: «يكونُ الغنيُّ والفقيرُ عندكَ في العلم سواء»[٤].

وعن السلفِ: «حق على العالِم أن يتواضَعَ لله في سرِّه وعلانيته، ويحترسَ من نفسه، ويقف عما أشكلَ عليه»[٥].

قال الشاعر:

تَوَاضَعْ تَكُن كالنجمِ لاحَ لِنَاظِرٍ
على صَفَحَاتِ الماءِ وهو رَفيعُ
ولا تكُ كالدُّخانِ يعلُو بنفسهِ
إلى طَبَقَاتِ الجوِّ وهو وَضيعُ

ومن روائع ما يكتب من التواضع في السيرة النبوية ما أخرج الطبراني عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: كانَ رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَجلِسُ على الأرضِ، ويأكلُ على الأرضِ، ويَعتَقِلُ الشاةَ، وُيجيبُ دَعوةَ المملوكِ على خُبزِ الشَّعيرِ»[٦].

قال الماوردي: «فَأما ما يجبُ أن يكُونَ عليه العلماءُ من الأخلاق التي بهم أَليقُ، ولهم أَلزمُ، فالتواضع ومُجانبةُ العُجبِ؛ لأن التواضعَ عطُوفٌ، والعُجبَ مُنفرٌ، وهو بكلِّ أَحدٍ قبيحٌ وبالعُلماءِ أَقبحُ؛ لأن النَّاسَ بهم يقتدُونَ وكثيرًا ما يُداخلهم الإعجَابُ لتوحدهم بفضيلة العلم، ولو أنهم نظرُوا حقّ النظرِ، وعملُوا بمُوجب العلم، لكَان التواضعُ بهم أَولى، ومُجانبةُ العُجبِ بهم أَحرى؛ لأن العُجب نقص يُنافي الفضل.

قال بعضُ السلف: من تكبر بعلمه وترفع، وضعهُ اللهُ به، ومن تواضع بعلمه، رفعهُ به. وعلَّةُ إعجابهم انصرافُ نظرهم إلى كثرة من دُونهم من الجُهَّال، وانصرافُ نظرهم عمن فوقهم من العُلماء؛ فإنه ليس مُتناهٍ في العلم إلا وسيجدُ من هو أَعلمُ منه؛ إذ العلم أكثر من أَن يُحيط به بشر؛ قال اللهُ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:٧٦] يعني في العلم: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] قال أَهلُ التأويل: فوق كُل ذي علمٍ من هو أعلم مِنهُ، حتى ينتهيَ ذلك إلى الله تعالى. فينبغي لمن علم أَن ينظر إلى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه. وقلَّما تجد بالعلم مُعجبًا، وبما أَدرك مُفتخرًا، إلا من كان فيه مقلًا ومقَصرًا؛ لأنهُ قد يجهلُ قدره، ويحسبُ أَنه نال بالدخول فيه أَكثره، فأما من كان فيه متوجهًا، ومِنه مستكثِرًا، فهو يعلم من بعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يَصده عن العجب به.

وقد قال الشعبيّ: «العلمُ ثلاثةُ أَشبارٍ فمن نال منهُ شبرًا شمخ بأنفه وظن أَنه نالهُ. ومن نال الشبرَ الثانيَ صغرت إليهِ نفسهُ وعلِمَ أَنه لم ينله، وأَما الشبر الثالثُ فهيهَات لا يناله أَحدٌ أبدًا»(٧).

قلت: ومن فضل الله سبحانه على كثيرٍ من العلماء تحليتهم بالفهم، والفقه في الدين، وشهرتهم بذلك بين الناس، حتى قيل في منثور الكلام: أنت ملك نفسك ما لم تُعرف، فإذا عُرفت أصبحتَ مِلكًا للناس.

قال الآجري -رحمه الله-: «فإذا نَشَر الله له الذِّكرَ عند المؤمنين أنه من أهل العلم، واحتاج الناسُ إلى ما عنده من العلم، أَلزم نفسَه التواضعَ للعالِم وغير العالِم، فأما تواضعُه لَمن هو مثلُه في العلم؛ فإنها محبة تنبت له في قلوبهم، وأحبُّوا قُربَه، وإذا غاب عنهم حَنَّت إليه قلوبهم، وأمَّا تواضعُه للعلماء فواجب عليه؛ إذ أراه العلمَ ذلك، وأما تواضعُه لَمن هو دونَه في العلم فشَرَفُ العلمِ له عند الله وعند أولي الألباب، وكان من صفته في علمه وصِدقه وحُسنِ إرادته، يريد الله بعلمه»(٨).

وقال الإمام الآجري -رحمه الله-: «فإذا أحبَّ مجالسةَ العلماء جالسهم بأدب، وتواضع في نفسه، وخَفَض صوتَه عند صوتهم، وساءلهم بخضوع، ويكون أكثرُ سؤاله عن علمِ ما تعبده الله به، ويخبرهم أنه فقير إلى علم ما يُسأل عنه، فإذا استفاد

منهم علمًا أعلمهم أني قد أَفَدتُ خيرًا كثيرًا، ثم شكرهم على ذلك، وإن غضبوا عليه لم يَغضَب عليهم، ونظر إلى السبب الذي من أجله غضبوا عليه فرجعَ عنه واعتذر إليهم، لا يُضجرهم في السؤال، رفيق في جميع أموره، لا يناظرُهم مناظرةَ من يُريهم أني أعلمُ منكم، وإنما هِمتهُ البحثُ لطلب الفائدة منهم، مع حُسنِ التلطف لهم، لا يُجادل العلماء، ولا يُماري السفهاءَ، يُحسنُ التأني للعلماء مع توقيره لهم؛ حتى يتعلمَ ما يزداد به عند الله فَهمًا في دينه»[٩].

٢- الاعتراف بالعجز:

العَجزُ لغة: التعب وسلب القوة. أما في الاصطلاح فهو: القصور عن فعل الشيءِ، وهو ضد القُدرةِ[١٠].

الأصل أن الإنسان فيه صفات النقص والعجز ويقوى بقوة الله سبحانه، فإذا شمخ بأنفه، وتكبر بعلمه؛ ليصرف وجوه الناس إليه فقد هلك، ومن تواضع لله رفعه.

قال بعضُ العُلماء: هلك من ترك لا أدري.

وقيل للخليل بن أَحمد: بم أدركت هذا العلم؟ قال: كُنت إذا لَقِيتُ عالمًا أَخذت منهُ، وأَعطيته.

وقال المنصورُ لِشَريكٍ: أَنَّى لك هذا العلمُ؟ قال: لم أَرغب عن قليلٍ أَستفيدهُ، ولم أَبخل بكثيرٍ أُفيده. على أَنَّ العلم يقتضي ما بقي منه،ويستدعِي ما تَأخرَ عنهُ، وليس للراغب فيه قناعةٌ ببعضه»[١١].

قلت: فالعلم الشرعي زينة العالم، وبالأخص علم الكتاب والسنة، وعلى كل عالم يريد أن يعلو كعبه، ويسمو قمره، ولا يغيب نجمه، ويبقى في عيون طلابه ومحبيه معظمًا أن لا يمل طلب العلم الشرعي، والميراث النبوي والعمل به، وليكن في ذاكرته دائمًا قول الله سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، وقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

والافتقار إلى الله سبحانه بطلب الفهم للنصوص الشرعية، والاستعاذة من علم لا ينفع مسلك العقلاء، وملجأ النبلاء؛ فإن الفهم من عظائم النعم. «ولا نخالك إلا حريصًا على حبل عزتك، ومرفأ جاهك ومَنجاتك، لا نحسبك إلا تواقًا للمزيد من العلم الشرعي بمختلف فنونه وأشكاله، وراغبًا أكثر في الفقه الذي هو لبُّ حياة الناس، ومَدارُ سؤالهم، وهو الفارق بين الحلال والحرام، وعلامةُ التوفيق إحسانُه واستحضارُه؛ فروعًا وأدلةً؛ ليكون المُؤتمون بك على هُدى وبينة، لا نحسبك إلا فوق هذا»[١٢].

٣- اقتضاء العلم العمل:

حلية العالم عمله بما يعلم، «وليس يغدو عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا»، ويقبح بالعالم مخالفة قوله فعله. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ

مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف٢- ٣].

قال الماوردي:

«وليكن من شيمتِهِ العملُ بعلمه، وحثُّ النفسِ علَى أن تَأْتَمِرَ بِما يَأمُرُ به، ولا يَكُن مِمن قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥]. فَقَد قال قَتَادةُ فِي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨]: يَعنِي أَنهُ عَامِل بما عَلِمَ.

وكان يُقالُ: خير من القول فاعلُهُ، وخير من الصواب قائلُهُ، وخَير من العلمِ حَامِلُهُ. وقيل في منثور الحكم: لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به. وقال بعضُ العلماء: ثمرةُ العلم أن يُعمل به، وثمرةُ العمل أن يُؤجر عليه. وقال بعضُ الصلَحَاءِ: العلمُ يَهتفُ بالعمل، فإن أَجابهُ أَقَامَ وإلا ارتحل»[١٣].

ومن مُلح ما أسند الخطيب البغدادي في السماع الدال على اقتضاء العلم العمل رواية تناقلها تسعة آباء فيها حكمة بليغة أوردتها للاستئناس فقط.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله-: أخبرنا أبو الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن سفيان بن يزيد بن أكينة بن عبد الله التميمي من حفظه، قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: «هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل» (عدد الآباء تسعة)[١٤].

٤- اجتناب قول ما لا يفعل:

قال الماوردي: «ثُم ليتجنَّب أَن يقُول ما لا يفعلُ، وأَن يأمُر بما لا يأتَمِرُ به، وأَن يُسرَّ غير ما يُظهرُ، ولا يجعلُ قول الشاعر هذا:

اعمل بِقَولِي وَإِن قصرت فِي عملي

ينفعك قَولِي وَلا يَضررك تقصِيرِي

عذرًا له في تَقصِيرٍ يُضمِرُهُ وَإِن لم يضُر غيرهُ، فإِن إعذار النفسِ يُغريها وُيحسنُ لها مساوئها؛ فإِن من قال ما لا يفعلُ فقد مكر، ومن أمر بما لا يأتمرُ فقد خدع، ومن أَسر غير ما يظهرُ فقد نافق.

وقد رُوي عن النبِي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنهُ قال: «المَكرُ وَالخَدِيعَةُ فِي النَّارِ»[١٥]. على أَن أَمرهُ بما لا يأتَمرُ مُطرح؛ وإِنكارهُ ما لا يُنكرُهُ من نفسه مُستقبح، بل رُبمَا كان ذلك سَبَبًا لإغراء المأمور بترك ما أُمر به عنادًا، وارتكاب ما نهى عنهُ كيادًا» اهـ[١٦].

٥- عدم البخل بالعلم:

ومن سوء الخلق البخل بالعلم، والجود بالعلم أسمى من الجود بالمال؛ لأن شرف العلم أسمى من شرف المال، ومن بخل بعلمه وكتم ما عنده، فقد ظلم نفسه، وبآء بالخسران المبين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قال العلامة ابن قيم الجوزية: «ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيميه – قدس الله روحه– في ذلك أمرًا عجبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر جوابها ومذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته، وهذه فتاويه – رحمه الله– بين الناس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل؛ بل يذكر له نظائرها ومتعلقاتها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه. وقد سأل الصحابة –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكان خصومه – يعني شيخ الإسلام ابن تيمية– يعيبونه ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر –مثلا– فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند، وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟ ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر»[١٧]. قلت: والبخل، وأيُ داءٍ أدوأُ من البخل، فمن جاد بعلمه نال ثلاث فضائل:

الأولى: الثواب. والثانية: إتقان الحفظ، زيادة العلم. والثالثة: نقل صورته ونظام علمه ليكون خلفا منه.

وقال بعضُ الحكماءِ: خَيرُ العلماءِ من لا يُقِل ولا يُمِل. وقال بعضُ العلماءِ: كُل علمٍ كثُر على المُستمعِ ولم يُطَاوِعهُ الفهمُ ازداد القلبُ به عَمًى. وإنمَا ينفعُ سمعُ الآذَانِ، إذا قَويَ فَهمُ القُلُوبِ فِي الأبدَانِ.

٦- نزاهة النفس:

النزاهة لغة: التباعد[١٨].

أما في الاصطلاح: اكتِسَابُ المَالِ من غَيرِ مَهَانَةٍ ولا ظُلمٍ، وَإِنفَاقُهُ فِي المَصَارِفِ الحَمِيدَةِ[١٩]. ومن القوادح إهانة النفس توصلًا للأغراض الدنية، فالترفع عما في أيدي الناس نزاهة محمودة، فالصيانةِ العنايةُ بالنفسِ من أن تشوبها شوائب القدح وخوارم المروءة، أو تتلوث بالعثرات، أو تتسامح بالزلات، فالريبة مذمة، فالاتكاءِ على فضيلة العلم لا يكفي، والاعتماد على ثقة الناس لا يفي.

قال ابن جماعة –رحمه الله–: «أن يُنزِّه علمه عن جعله سُلمًا يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية؛ من جاهٍ، أو مالٍ، أو سمعةٍ، أو شُهرةٍ، أو خدمة، أو

تقدم على أقرانه .. ، وكذلك يُنزهُه عن الطمع في رفقٍ من طلبته بمالٍ أو خدمة، أو غيرهما بسببٍ انشغالهم عليه وتردُّدهم إليه»[٢٠].

وقال الماوردي -رحمه الله-: «ومن آدابهم: نزاهةُ النفسِ عن شُبه المكاسب، والقناعةُ بالميسور عن كدِّ المطالب؛ فإن شُبهة المكسب إثم، وكد الطلب ذُل، والأجرُ أَجدرُ به من الإثم، والعزُّ أَليقُ به من الذُّل»[٢١].

قال الماوردي -رحمه الله-: «ولعمري إن صِيانةَ النفسِ أَصلُ الفضائل؛ لأَنَّ من أَهمل صِيانة نَفسهِ ثقةً بما منحهُ العلمُ من فضيلتهِ، وتوكلًا على ما يلزمُ الناسَ من صيانتهِ، سلبوهُ فضيلةَ علمه، ووسموهُ بقبيحِ تبذُّله، فلم يفِ ما أَعطَاهُ العلمُ بما سلبهُ التبَذّلُ؛ لأَن القبيحَ أَتم من الجميل، والرذيلةُ أَشهرُ من الفَضيلةِ؛ لأَن النَّاس لما في طبائعهم من البغضةِ والحسدِ ونزاع المُنافسةِ تنصرفُ عُيُونُهم عن المحاسن إلى المساوئ، فلا ينصفُون مُحسِنًا، ولا يُحابون مسيئًا، لا سيما من كان بالعلم موسومًا وإليه منسوبًا؛ فإن زلتَهُ لا تُقالُ وهفوتهُ لا تُعذرُ؛ إما لقبح أثرها واغترار كثيرٍ من النَّاسِ بها. وقد قيل في منثور الحكم: إن زلة العالم كالسفينة تغرقُ ويغرقُ معها خلق كثير، فهذا وجه. وإمَّا لأَن الجُهال بذمه أَغرى، وعلى تنقُّصه أَحرى؛ ليسلُبوهُ فضيلةَ التقدم، ويمنعوهُ مُباينة التخصيصِ؛ عنادًا لما جهلُوهُ، ومقتًا لما باينوهُ؛ لأَن الجاهل يرى العلم تكَلفًا ولومًا، كما أَنَّ العالم يرَى الجهلَ تخلفًا وذمًا»[٢٢].

* * *

الهوامش:

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٤١) للحافظ ابن حجر.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) في كتاب البر والصلة، باب: استحباب العفو والتواضع.
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة.
(٤) أخرجه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٤٥) بسند لا بأس به.
(٥) «تذكرة السامع والمتكلم» (٣٤)
(٦) صحيح بطرقه. أخرجه الطبراني في الكبير وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢١٢٥).
(٧) «أدب الدنيا والدين» (١١٣).
(٨) «أخلاق العلماء» (٥٢).
(٩) «أخلاق العلماء» (٥١).
(١٠) «فيض القدير» (٢/ ١٥١)، و«المفردات» (٣٢٢).
(١١) «أدب الدنيا والدين» (١١٩).
(١٢) ينظر «رسائل التواصل» (١٠) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الكويت.
(١٣) «أدب الدنيا والدين» (١٢١).
(١٤) «اقتضاء العلم العمل» (٤٠) تحقيق شيخنا العلامة الألباني، وابن عساكر في «ذم من لا يعمل بعلمه» تحقيق الشيخ المحدث علي حسن عبد الحميد (١٥)، وإسناده لا يخلو من مجاهيل.
(١٥) صحيح. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» عن قيس بن سعد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٢٥).
(١٦) «أدب الدنيا والدين» (١٢٣).
(١٧) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٩).
(١٨) «المصباح المنير» (٢٢٩).
(١٩) «التوقيف على مهمات التعاريف» (٦٩٥).
(٢٠) «تذكرة السامع والمتكلم» (٣٦).
(٢١) «أدب الدنيا والدين» (١٣٢).
(٢٢) «أدب الدنيا والدين» (٥٥).

* * *

من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ٦٣)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

حاصل القول:

وجماع القول أن المبشرين كانوا يواصلون نشاطاتهم التبشيرية في جانب، ويفتحون مدارس التبشير، التي توفر تسهيلات التعليم والدراسة، وكان حكام الشركة بعد ذلك ظهير، يمدونهم بكل ما يحتاجون إليه من المساعدات، وأعظم ذلك كله هو الإطماع في التوظيف، ووضعت الشركة خطة تهدف إلى سوق الهنود وخاصة المسلمين إلى هاوية الجهل والفقر والعوز، واستخدمت لهذا الهدف أنواعا من الوسائل والأسباب المشروعة وغير المشروعة، وإلى اضطرارهم إلى الدراسة في مدارس التبشير بتوفير الوظائف لهم، مما كان يشكل أحدّ سلاح للتبشير في ذلك الحين. وأبرز ما يعوق دون ذلك هي علوم المسلمين و ولعهم الديني. فوضعوا خطة التعليم لعام ١٨٣٥م/١٢٥١هـ، وكانت روح هذه الخطة السارية فيها – كما سبق نقله عن اللورد ميكالي– :

«خلق جيل هندي اللون والنسل، مصوغ في قالب النصرانية فكرةً وسلوكًا».

ولا شك أن هذا السلاح الجديد من التعليم والثقافة كان أحدّ وأمضى وأنجع من السلاح الأول بمراحل كثيرة. ولا يخفى أن خطة الشركة هذه، ومنهجها التعليمي سلاح مدمر وفاتك بحياة المسلمين الدينية، ومثلهم الدينية، وعلومهم وفنونهم مما لم يرضوا قبوله بصورة أو أخرى. كما أنهم لم يتوصلوا بعد إلى حل يعينهم على استقباء حياتهم الدينية وشعارهم الديني، والحفاظ عليهما؛ إذ اشتعلت نيران ثورة عام ١٨٥٧م، التي بلغت – لأهْوَالِها ودَمَارها– القلوب الحناجر، و شلت الأذهان وثبطت المعنويات والعزائم. وساد الأمة كلها جو من العجز واليأس الرهيب، و انقضت حكومتهم وشوكتهم وثروتهم وجاههم، وحرموا أسباب العيش كل الحرمان، وبدأت الخصال القبيحة تتخذ مكانها منهم مع مرور الأيام، والأمم واحدة تلو أخرى تنساق إلى هوة الدمار والهلاك. وازداد البعد عن التعليم، و النفور منه مع مرور الأيام. وزال الشعور بقوتهم ومكانتهم، وزادت نشاطات المبشرين المتصاعدة الطين بلة، وحولت

(*) أستاذ التفسير واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

الأوضاع إلى ما هو أشد فظاعةً وخوفًا. وكان جيل العلماء – الذين تلقوا العلم في المعاهد السابقة– على وشك الفناء.

وفي مثل هذه الأوضاع الرهيبة اضطُر أصحاب الفكر والعلم والفضل منا إلى التفكيرفي أن علوم المسلمين ودينهم وحياتهم الدينية معرضة للخطر في المستقبل بعد أن مُنُوا بالانحطاط السياسي والحرمان من الحكومة والسلطة. ولم يكونوا في غفلة عن قضاء التاريخ بأنه ما من أمة تفتح دولة من الدول وتستولي عليها وتتغلب على سكانها سياسيا إلا وتأثيرات الأمة الفاتحة الغالبة لاتقتصر على أجساد الأمة المهزومة والمغلوبة على أمرها؛ بل تخضع قلوب الأمة المهزومة وأذهانها وعلمها وتفكيرها كذلك للأمة الغالبة الحاكمة، مما يؤدي حتما إلى أن تتخلى الأمة المهزومة عن شعائرها الدينية وخصائصها القومية، وفكرها وعملها؛ بل تمر بحالة من الجذب والاستمالة لمدة من الزمان وفق قاعدة «الناس على دين ملوكهم»، وفي نهاية المطاف تشمئز نفوسها من تقاليدهاو مثلها وفكرها وعملها، ولايعود له مفخرة إلا تقليد الأمة الغالبة تقليدا أعمى وتبعيتها المحضة. ويمثل ذلك أشد المراحل هولًا وخطرا في تاريخ المسلمين في الهند الممتد على ست مئة سنة.و في مثل هذه الأوضاع الحرجة التي خلقت فيها الليالي والأيام للمسلمين وضعًا مدمرًا لأقصى الحدود، كان أهم وأبرز ما يتطلبه الحفاظ على المسلمين وبقاؤهم هو صيانة المثل الإسلامية، وإنشاء المدارس الدينية.

ومن أهم وأبرز ما اختص به علماؤنا ومشايخنا أنهم لم يتخلوا عن الشريعة الإسلامية في جانب القضايا الفقهية والعلمية إلى جوانب الثقافة والحضارة والاجتماع والسياسة والمدنية، ولم يستسلموا في جانب منها لخصومهم وأعدائهم. وكان القرن التاسع عشر يمثل تحديا كبيرا لعقائد المسلمين وأفكارهم ونظرياتهم. وكان العلوم الغربية وفنونها، والثقافة الإنجليزية تجرف – كالسيل العارم– بالعالم كله. وأفلت شمس الحكومة المغولية في الهند، وشخصت روعة العلوم الطبيعية والتكنولوجيا بالأبصار وفرضت هيبتها على القلوب. غير أن العلماء تصدوا بصورة مستمرة للتحدي الغربي، فقاموا – في جانب– بإنشاء المدارس الدينية في مختلف مناطق البلاد، وعملوا بذلك سدا منيعا صان المسلمين من تداعيات الهزيمة السياسية لحد كبير، وفي جانب آخر وقف الشيخ رحمت الله الكيرانوي، والإمام محمد قاسم النانوتوي: (١٢٤٨-١٢٩٧هـ/١٨٣٢-١٨٨٠م) والشيخ أبو المنصور(....-.١٣٢٠هـ/ ....-١٩٠٢م)[1] والدكتور وزير خان وأمثالهم في وجه الإرساليات التبشيرية بكل قوة و جرأة وبسالة، ولم يدعوا أحلام الإرساليات التبشيرية لرد المسلمين إلى النصرانية تتحقق وتتجسد.

ويمكن توزيع الأساليب والأسباب التي اتبعها المنصرون لنشر المسيحية في الهند في أربعة أقسام:

(١) مدارس التنصير: كانت تدرِّس لغة الحاكم وهي الإنجليزية، وكانت دراسة الإنجيل من اللازم في كل مدرسة تنصيرية. ونحن في غنى عن الإشارة إلى أن التعليم أكبر وسيلة لنشر دين من الأديان. فالطلاب – نظرا إلى صغر سنهم، وحرمانهم من تجارب الحياة – سذج وفي غفلة عن التوجيهات الدينية. وما أيسر التأثير على عقولهم وأذهانهم عن طريق التعليم والدراسة بصرفها عن التقاليد والمثل الموروثة. وسادت في تلك الأيام الفكرة القائلة بأن الأطفال يرتدون عن دينهم و يتحولون إلى النصرانية بعد دراستهم الإنجليزية، ومعنى ذلك أنهم يعتنقون الدين المسيحي، وعليه احترز المسلمون – بصفة خاصة – من إلحاق أبنائهم بمدارس التنصير، وعارضوا التعليم الإنجليزي كل المعارضة، يقول خواجه غلام الحسنين الباني بتي: «قال مولانا ألطاف حسين حالي لأمي: أرسليه إلى دهلي، ليلازمني ويتعلم الإنجليزية» إلا أن الوالدة أبت وقالت: لا أحب أن أحوِّله طبيعيًا ملحدًا بتعليمه الإنجليزية»[٢].

وذلك يمثل حذرا لزم المسلمون جانبه تجاه التبشير والتنصير، ولعب العلماء دورًا رياديًا في خلق هذا الشعور في قلوب المسلمين.

(٢) استغلوا المستشفيات التبشيرية لنشر النصرانية، وكانوا يحاولون التأثير في المرضى في هذه المستشفيات، ولايزال الأمر على ذلك لحد ما إلى يومنا هذا. وكان المسلمون يرجعون في معالجتهم ودوائهم إلى الطب اليوناني والعقاقير والطريقة الآريوفيدية في معظم الأحوال. ومن أهم فوائد ردة الفعل هذه أن استمر الطب اليوناني والطريقة التقليدية ليومنا هذا في البلاد، وتشهد الرقي والازدهار مع مرور الأيام.

(٣) والطريقة الثالثة التي اتبعوا في التبشير والتنصير هو إلقاء الوعظ والمناظرات في التجمعات العامة. وقام العلماء بمواجهة الإرساليات التبشيرية في هذا الميدان مواجهة كبيرة، وهزموهم بأدلتهم الشافية القوية بصورة متتابعة جعلت مخططاتهم مهب الريح. ويمكن سرد أسماء دهلي وعلي كره وشاهجهان فور على الوجه الخاص في هذا الصدد. واضطر أكبر المبشرين في ذلك الزمان المدعو بـ«سي جي فاندر» إلى الفرار من ميدان المناظرة حين واجهه الشيخ رحمت الله الكيرانوي[٣]، وزميله في الدرب: الدكتور وزير خان[٤] بأدلة علمية قوية وأجوبة مفحمة. فعضَّ بنان الندم على ما لقي من الهزيمة النكراء وأدرك أن أرض الهند لاتواتي فيما يهدف إليه فعاد منها خاسئًا وهو حسير. وقد نشرت تفاصيل مجريات مناظرة آكره.

وكذلك لم تثبت أقدام الإرساليات التبشيرية أمام الإمام محمد قاسم النانوتوي: (١٢٤٨–١٢٩٧هـ/١٨٣٢–١٨٨٠م) والشيخ أبو المنصور الدهلوي في مناظرات شاهجهان فور. وسجلت تفاصيل مجريات هذه المناظرات في: «كفتكوئ مذهبي»، و«مناظرة شاهجهان فور».

وناظر علماء ديوبند الإرساليات التبشيرية في غير هذه المناطق، وخلقوا بذلك عقبات كأداء في وجه انتشار النصرانية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن باب المناظرات لم يفتح إلا بعد دخول الإرساليات التبشيرية إلى الهند، فلم تشهد الهند مناظرات بين المسلمين والهنود طوال ستة قرون من الزمان من الحكم الإسلامي عليها. فما إن وطئت أقدام النصارى هذه البلاد حتى نفقت سوق المناظرات وحمي وطيسها. والغريب في الأمر أن الهند لم تتخلص من براثن الحكم الإنجليزي حتى خفت وطأتها وضعف سلطانها، وولى عهدها في الهند.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن الإرساليات التبشيرية لم تكتف بنشر النصرانية والدعوة إليها، ولو أنها اكتفت ببيان محاسن وخصائص دينها للناس، فربما لم تُلاقِ مواجهة عنيفة من قبل المسلمين، إلا أن الإرساليات التبشيرية – على العكس من ذلك- شنت هجمات سخيفة على الإسلام ونبي الإسلام، و وجهت إليهما طعونًا شنيعة، فلايخفى أن صبر المسلمين عيل على موقفهم هذا، وما كان لهم أن يصبروا عليه، فكافح علماؤهم هؤلاء بشدة، وحاولوا القضاء على آثار النشاطات التبشيرية ما وسعهم ذلك، ولا شك أن كثيرًا من علماء الهند أدلوا دلائهم في هذا الأمر، ولايمكن نكران خدماتهم وجهودهم، غير أن ما قام به علماء ديوبند من الخدمات الملموسة البارزة في هذا الميدان يحتل أهمية قصوى.

(٤) المستوى الرابع من الجهود التبشيرية يتمثل في التأليف والتصنيف، واتبعوا فيه ما اتبعوه في الوعظ والخطابة من أسلوب الجرح والإساءة، الذي يؤكد على الهجوم على نبي الإسلام والمسلمين هجومًا سخيفًا شرسًا أكثر من التركيز على بيان و شرح خصائص النصرانية ومحاسنها. وتحدى المسلمون الإرساليات التبشيرية في هذا المجال أيضًا، وبالتالي فترت نشاطاتهم لحد كبير. وعمل الشيخ رحمت الله كتابًا سماه « إظهار الحق»(٥)، وجعل اعتراضات الإرساليات التبشيرية مهب الريح؛ بل اضطرهم إلى الدفاع عنهم بدلا من الهجوم على المسلمين. وأكبر دليل على تلقي هذا الكتاب القبول أنه تم نقله إلى ست لغات أوربية في ذلك العصر.

لاشك أن المسلمين الهنود مُنُوا بالهزيمة السياسية على أيدي الإنجليز، إلا أن العلماء المسلمين لم يدعوا المبشرين يحققون النجاح والانتصار في الميادين العلمية والفكرية، فقد هزموهم بصورة متتابعة في مجال التبشير والتنصير، حتى اضطروا – المنصرون – إلى قصر نشاطاتهم التبشيرية المتصاعدة على نطاق خاص، وخاصة الجانب الخاص بالهجوم اللاذع على الأديان الأخرى، فقد تخلوا وأعرضوا عنه. والحاصل أن دارالعلوم وعلماؤها قاموا بالحفاظ على الدين في الوقت الذي كان يشهد أفول شمسه، وحاولوا كل

المحاولة مواجهة الفتن الداخلية والخارجية بحذافيرها، وبذلوا ما وسعهم من الجهود الرامية إلى الدفاع عن الإسلام.

وكانت الحاجة ماسة إلى اتخاذ الإجراءات الإيجابية علاوة على الدفاع والحفاظ. وتمثلت أول خطواته في إنشاء المدارس الدينية، فأقيمت دارالعلوم/ ديوبند عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، وتلاها نشأة مظاهر علوم سهارن فور بعدها ببضعة أشهر، ثم أنشئت مدارس دينية في كل من: «تهانه بهون»، و«مظفر نغر»، و«أنبيثه»، و«كلاؤتهي»، و«ميروت» وغيرها، وظل أعدادها ترتفع وتزداد يوما فيوما. وكان يتوخى كبار علماء ديوبند، وخاصة الإمام النانوتوي رحمهم الله إقامة المدارس الدينية، فكان يقيمها الإمام النانوتوي حيث حلَّ، فمدارس «مرادآباد» و«كلاؤتهي» و«أنبيثه» ونحوها أسسها الشيخ بيده. وكان يرسل إلى أصحابه ومسترشيده حيث كانوا كتبا تؤكد ضرورة إنشاء المدارس الدينية. فأنشئت مدارس كثيرة بهذا الترغيب والتحريض. فكأنه مؤسس المدارس الهندية إلى حد ما.

وأنشؤوا عدة مطابع لإيصال العقائد الإسلامية إلى الشعب المسلم، وقامت هذه المطابع بطباعة القرآن الكريم وغيره من الكتب. كما نشرت عدة كتب في الرد على النصرانية. وعملت الكتب المطبوعة في هذه المطابع على توعية المسلمين بالمواد الدينية بصور أكثر فأكثر مع مرور الأيام، كما عملت على شرح صدور المسلمين بالأجوبة المشفوعة وبالأدلة الدامغة على الاعتراضات التي كان يوجهها المنصرون إلى الإسلام. ووفر علماء ديوبند للشعب المسلم آلافًا من الكتب و الرسائل، ونشروا كثيرًا من الكتب الخاصة بالمواد الإسلامية. وأقاموا سدًا منيعًا في سبيل النشاطات التبشيرية بنشر العلوم الدينية وتدريسها. فلم تتحقق الأهداف التي كان يأملها المبشرون من نشاطاتهم التبشيرية.

ونافلة القول أن المدارس الدينية وإن كانت تهدف إلى الحفاظ على العلوم الإسلامية – غير أنها كانت تشكل حصنًا حصينًا للمسلمين ضد النشاطات التبشيرية المتحمسة.وانتشر خريجو هذه المدارس في طول البلاد وعرضها. وعملت نشاطاتهم في التدريس والوعظ والخطابة والتصنيف والتأليف بين المبشرين و أهدافهم سدا منيعا لايسع خرقه، وحاجزًا يردعهم عن تحقيق ما راموا، و غُلًّا يكف أيديهم عن التطاول على المسلمين. فذهبت أحلامهم التي رأها المبشرون في كالكوتا عام ١٨٥٧م في خصوص تحويل الهند إلى دولة مسيحية بما كانوا يبذلونه من المساعي المضنية الدؤوبة– أدراج الرياح للأبد. قال الشيخ مسعود عالم الندوي في كتابه في اللغة العربية: «نظرة إجمالية في الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان»- وهو يتحدث عن الأوضاع التي كانت تعيشها البلاد يومئذ-:

«بينما حوادث الثورة الكبرى وما تلاها من الشدائد والأحوال قد أثرت في السيد أحمد خان وأضرابه من جهة، وحفزتهم إلى محاكاة الإنجليز

وتقليدهم في كل شيء، كان لتلك الحوادث نفسها تأثير آخر في قلوب الشيوخ والعلماء، وكان فيهم من أفتى بوجوب مشاركة المسلمين في الثورة، وبقية ممن اشتركوا في الجهاد تحت لواء السيد الشهيد فإنهم رأوا في سياسة الحكومة واضطهادها للمسلمين وانتشار الإرساليات المسيحية وتأثر وجهاء المسلمين بفخفخة الإنجليز وحضارتهم الفاتنة، رأوا في ذلك خطرًا على الدين ومستقبله في هذه الديار، فآثروا فتح المدارس الدينية الحرة وتعميم التعليم الديني المجاني في القرى والأمصار، بحيث لاتكون للحكومة فيها يد ولا رقابة، فانبثَّتْ المدارس الكبيرة والصغيرة في الجوامع والأبنية الخاصة كما انتشرت المدارس العصرية في كل مدينة. وأول مدرسة دينية أسسوها مدرسة ديوبند – قرية بينها وبين دهلي زهاء ستين ميلا- فابتدأت بمدرِّس وطالب، ثم نمت وترعرعت وتدرجت في الرقي والاتساع إلى أن أصبحت أكبر مدرسة دينية في هذه الأقطار»[٦].

وأثار ارتداد الملكانيين في آغرة عام ١٣٤١هـ/ ١٩٣٢م قلقًا واضطرابًا عنيفًا في المسلمين، وسرعان ما انصرفت إليه اللجان والمدارس الهندية، ولم تأل دارالعلوم/ديوبند جهدًا وساهمت فيه بما وسعها، وأرسلت (٥٠) من دعاتها إلى المناطق المتضررة بالارتداد، الذين واصلوا نشاطاتهم الدعوية المضنية التي تستنفد الصبر إلى مدة من الزمان. كما أقامت دارالعلوم مكتبًا دعويًّا خاصًا بهذا الهدف في مدينة «آغره»، كما أنشؤوا (٢٠) كُتَّابا دينيًّا في المناطق المتضررة بالارتداد، يقوم بتعليم الملكانيين وأطفالهم العقائد الإسلامية وفرائضه وما يحتاجون إليه من مبادئ الدين. وآتت هذه الجهود ثمارها المرجوة فتوقف السيل الجارف من الارتداد[٧].

تقول صحيفة «سياست» الصادر في «لاهور» في هذا الصدد:

«ما أحرزه دعاة دارالعلوم من النجاح في سد باب فتنة الردة أظهر من الشمس في رائعة النهار، و أما الحفاظ على الدين والرد على أعدائه، وإصلاح المسلمين، فإن «دارالعلوم» أساتذتها ودعاتها و القائمين عليها أكثر مَن في أرض الهند حظاً ونصيبًا في ذلك، وعلى سبيل المثال إذا ما أمعنت النظر في الجهود اللامتناهية المناوئة للإسلام والتي بذلتها «آريه سماج»[٨] لتبَيَّنَ لك– كالشمس في رائعة النهار– أن أبرزمن تصدى لهذه المخططات العدوانية المعادية للإسلام هو المدرسة العالية في «ديوبند» لا غير»[٩].

وكان ذلك أكبر معوان على الحفاظ على التراث الديني وبقائه في الهند من أقصاها إلى أقصاها.

ثم ما قام به أولاد الإمام النانوتوي ثم خريجو دارالعلوم/ديوبند أمثال الشيخ مرتضى حسن التشاندفوري، والشيخ ثناء الله الأمرتسري من التفاني في رد هجمات النصرانية وحركة «آريه سماج» التي جاءت منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري

بالإضافة إلى مكافحة النشاطات التبشيرية ببسالة وشجاعة يشكل مأثرةً وعملًا عبقريًا في تاريخ دارالعلوم/ديوبند[١٠].

ما بذله كل من العلامة سيد محمد أنور شاه الكشميري، والشيخ مرتضى حسن التشاندفوري، والشيخ أحمد علي اللاهوري، والشيخ بدر عالم الميروتي، والشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوي والشيخ المفتي محمد شفيع الديوبندي، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، والشيخ بدر عالم الميروتي، والشيخ محمد علي الجالندهري، والقاضي إحسان الله الشجاع آبادي وغيرهم من العلماء من الجهود والمساعي في مواجهة القاديانية يمثل بابًا هامًا وصفحةً مشرقةً من تاريخ دارالعلوم ديوبند.

* * *

الهوامش:

(١) رسالة حيات نور ص ١٤٠.

(٢)

(٣) الشيخ رحمت الله الكيرانوي (١٢٣٣هـ/١٨١٧م) من مواليد كيرانه (مظفر نغر)، ويصل نسبه بوسائط إلى المخدوم جلال الدين كبير الأوليا (ت ١٧٦٥م/١٣٦٣هـ)، درس كتب الفارسية في بلده، ثم توجه إلى دهلي، وتعلم على العالم الشهير يومذاك: الشيخ محمد حيات.ثم غادرها إلى لكناؤ حين بلغ مسامعه سمعة المفتي سعد الله المراد آبادي، وجلس إليه في حلقته وتخرج عليه في المعقولات.
وكان هذا العصر يشهد نشاطات الإرساليات التبشيرية على أشدها في الهند، وبدأ الشعب ينفعل بدعايات الإرساليات التبشيرية، فأعد الشيخ رحمت الله عام ١٨٥٤م/١٢٧١هـ كتابا في الرد على النصارى وهو «إزالة الأوهام»، فتحدى به الإرساليات التبشيرية، وهزمهم في مناظرات آغره هزيمة نكراء، فاضطر القسيس «فندر» إلى العود من الهند خائبا خاسرا.
وجهاد الشيخ رحمت الله باللسان والبنان في عام ١٨٥٤م/١٢٧١هـ شكل تمهيدا لجهاده بالسنان في ١٨٥٧م/١٢٧٤هـ، فخاض الشيخ معركة التحرير خوض الرجال الشجعان، وصدر في حقه أمر ضبط وإحضار من الحكومة بعدها، وخرج الشيخ من الهند خائفا يترقب إلى مكة المكرمة، وصودرت ضيعاته في كيرانه بتهمة مشاركته في الثورة ضد الحكومة، وأنشأ في مكة المكرمة المدرسة الصولتية، وهي مستمرة في خدماتها على أحسن ما يرام ليومنا هذا. وكان ذلك على عهد الملك عبد العزيز (١٢٧٧-١٢٩٣هـ/١٨٦٠-١٨٧٦م)، وطلبه السلطان من مكة المكرمة إلى قسطنطينة، وعلم فندر بمقدمه إليها، فلاذ بالفرار منها، وألقى الشيخ رحمت الله – بطلب من السلطان – الأجوبة على اعتراضات القس فندر، وأعد كتابا في الرد على النصارى وسماه «إظهار الحق».
وتوفي الشيخ رحمت الله عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، ودفن في جنة المعلاة (من كتاب: آثار رحمت لصاحبه إمداد صابري).

(٤) الدكتور وزير خان من السادات الأفغان في ولاية بيهار، تلقى الدراسة الإنجليزية في «مرشد آباد»، ثم توجه إلى لندن لدارسة الطب، وحصل على شهادة «الطبيب المساعد» منها، وتعين في منصب «الجراح المساعد» في آغره، له قدرة تامة على اللغة الإنجليزية. عاد من إنكلترا حاملا معه شروح الإنجيل والتوراة وغيرهما، وكان على اطلاع واسع عميق على كتب النصرانية في ذلك العهد، فكان الساعد الأيمن للشيخ رحمت الله في المناظرات التي جرت في مدينة آغره بينه وبين الإرساليات التبشيرية.
له مساهمة في حرب التحرير، وخاض المعارك في كل من لكناؤ وبدايون وغيرها ضد القوات الإنجليزية، وبعد فشله فيها غادر إلى الحجاز، ونزل على الشيخ رحمت الله. ومارس مهنة الطب. وحاول الإنجليز إلقاء القبض على الدكتور وزير خان بمساعدة من الحكومة التركية، إلا أنهم فشلوا، وتوفي الدكتور وزير في مكة المكرمة.
(آثار رحمت لصاحبه إمداد صابري؛ غدر كى جند علماء – من علماء الثورة ضد الإنجليز –للمفتي انتظام الله شهابي، الناشر: نيا كتاب كهر، دهلي)

(٥) يعد كتاب إظهار الحق كتابا قيما رائعا بالنظر إلى مواده القوية ورصانة أدلته، يتضمن الأدلة القوية على صدق القرآن الكريم والرسالة، كما يتناول الكتاب عقائد النصارى بالنقد العلمي وإثبات التحريف في التوراة. وأعد هذا الكتاب بطلب من السلطان عبد

العزيز خان عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م. كما تم نقله بأمر منه إلى غير واحد من اللغات الأوربية. وقالت صحيفة «لندن تائمز» (London Times) معلقة على كتاب إظهار الحق: «يتوقف انتشار الدين العيسوي ورقيه في العالم إذا ما استمرت قراءة هذا الكتاب».

نشرت مكتبة دارالعلوم/كراتشي في الأيام الأخيرة ترجمة أظهار الحق إلى اللغة الأردية في (٦٢٠)صفحة. يتصدر الكتاب مقدمة علمية ضافية بقلم الشيخ محمد شفيع العثماني الديوبندي ثم الكراتشوي، في أكثر من (٢٠٠) صفحة.(سيد محبوب الرضوي)

(٦) نظرة إجمالية في الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان، ص ٦٠-٦٢، ط: مكتبة لجنة الشباب المسلم، القاهرة.

(٧) تقارير دورية لدارالعلوم عام ١٣٤١هـ، ص ٦-٣٢.

(٨) كان راجبوت ملكانه [طائفة من الهنادك من أهل النجدة والجلادة: المترجم] يقطنون في ضواحي مدينة آغره، يبلغ عددهم نحو أربع مئة ألف نسمة، لايعلم إلا الله تعالى متى أسلموا، وفي أوائل عام ١٩٢٣م بدأت حركة آريه سماج في تحويلهم إليها، ويطلق عليه: حركة «الاندماج»، وكان يقود هذه الحركة «سوامي شردها نند»، أثارت حركة الاندماج هذه مخاوف شديدة في المسلمين، وتوجَّه كثير من جماعات الدعوة والتبليغ من أنحاء البلاد إلى آغره، للدفاع عن المسلمين، وتحول ذلك أكبر سبب للصراع بين المسلمين والهندوس، وشهدت الأوضاع في أعقاب حركة الاندماج هذه تدهورا رهيبا حال دون عودة المياه إلى مجاريها فيما بعد.كما عملت هذه الحركة على تسميم جو البلاد حتى نشبت الاضطرابات الطائفية بين المسلمين والهندوس في مناطق كثيرة. وجلبت هذه الحركة نفعا سياسيا عظيما على الإنجليز، الذين كانوا يرون استحكام هذه الحركة وقوتها في صالحهم، وعقبة كاداء في سبيل تحرير الهند، فلم تزدد هذه الحركة مع مرور الأيام إلا قوة وتأصلا. وكان كل من الشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوي و سوامي شردها نند في غياهب سجن «ميان والي»، وماقاله الشيخ حبيب الرحمن يعين كثيرا على إدراك حركة الاندماج هذه، جاء في ترجمة الشيخ اللدهيانوي المعروف بـ«سوانح رئيس الأحرار» بعنوان «سعة المائدة، وبرنامج الاندماج»، قول الشيخ اللدهيانوي ما يلي:

«أصبحت سعة مائدة المسلمين، ومشاركة الشباب الهندوس فيها، وتحرر الشبان الهندوس، ونفورهم من الفوارق الطبقية أصبحت أمرا لايطاق بالنسبة لسوامي شردها نند، فبدأ بتحذير الهندوس من مشاركة المسلمين في مائدتهم، وقال لهم : «أصبحتم تقتربون إلى الإسلام»، وكان سوامي يرى أن مشاركة المسلمين في الطعام واعتناق الإسلام سيان، إلا أن الشبان الهندوس لم يقبلوا رأيا من آراء سوامي فيما يخص الشؤون الاجتماعية. فلما فشل سوامي في تحقيق هدفه أعلن في سجن «ميان والي» ما يلي:

«إذا كانت حركة الخلافة والحركة السلمية المناوئة للحكومة تعني القضاء على الفوارق بين المسلمين والهندوس على مائدة الطعام، فإني لاأوافق على حركة التحرير مثلها».

وبالتالي نفض يده من حركة اللاموالاة المدنية، وتراجع عن خطواته، وأطلق سراحه من سجن «ميان والي» بصورة مثيرة للغاية، ولم يخرج من السجن حتى أعلن شن حركة الاندماج. ومما يحتل مائدة سجن «ميان والي» الموسعة من الأهمية التاريخية أن شخصا واحدا غضب عليها وأنشأ حركة تجلت مغبتها الوخيمة في صورة رهيبة في الهند. (رئيس الأحرار، هندوستان كي جنك آزادي- حرب تحرير الهند -لصاحبه: عزيز الرحمن الجامعي، ص ١١٠-١١٥، ط:عام ١٩٦١م).

يقول الشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوي: إن التكاتف والوحدة بين المسلمين والهندوس والسيخ، الذي تحقق في الاجتماع الذي نظمه حزب المؤتمر الوطني عام ١٩١٩م في أمرتسر لم يتكرر مثله بعد هذا الحدث.

ويقول الجودهري رحم علي - صحفي شهير باللغة الإنجليزية والأردية - في كتابه «يادين - مذكراتي-»: «نجح اللوردريدنك في التغلب على حركة اللاموالاة، فقد أطلق سراح سوامي شردهانند من السجن، وكلفه شن حركة «التحويل إلى الهندوسية» (Shuddhi) وإثارة «الاندماج» (Sangthan)، فسارت الوحدة التي تمخضت من رحم حركة اللاموالاة مهب الريح، ولازالت الشجرة المسمومة من الطائفية التي تم زراعتها آنذاك تثير الاضطراب والقلق في السياسة الهندية ليومنا هذا. (يادين نقلا عن مجلة «زبان وادب» العدد: نوفمبر عام ١٩٧٣م، ط: آزاد كتاب كهر، دهلي، ص ٤).

(٩) افتتاحية صحيفة «سياست» الصادرة في لاهور العدد: شهر يونيو عام ١٩٢٣.

(١٠) لاستزادة منه راجع: «ميله خداشناسي» -عيد التعرف على الإله، و « مباحثه شاهجهان فور»، و «حجة الإسلام»، و «انتصار الإسلام»، و«قبله نما»، و«جواب تركي بتركي».

* * *

ماذا يجب علينا تجاه المسجد؟

بقلم: **الشيخ صالح بن ناصر بن صالح الخزيم**

يجب علينا تجاه بيوت الله أن نصونها من الأوساخ والقاذورات، وأن نتعهدها بالحفظ والرعاية وأن نميط عنها ما يدنسها من أقذية، وأدناس ولو يسيرة، وأن نبتعد عن الوسائل التي تزيدها أذى، وأن نوصد كل باب يلج منه ما يشي بعدم احترامها ويوحي بالاستخفاف بها وإهمالها.

قال الحبيب المصطفى معلمنا وقدوتنا -ﷺ- في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه قال: «جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره الناس فنهاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما قضى بوله أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذنوب من ماء فأهريق عليه»[١] نهاهم الرسول الرفيق بأمته عن زجره؟ خوفًا من أن ينذعر فيعدو جريا فيلوث بقعا أكثر من المسجد ويلوث ثيابه فتحصل مفاسد أشد.

ومما يستحب استحبابا متأكدا كنس المساجد وتنظيفها. فعن أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها قالت: أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببناء المساجد في الدور[٢] وأن تنظف[٣] وتطيب[٤]. وعن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة[٥] يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أؤتيها رجل ثم نسيها». رواه أبو داود[٦].

وفي هذا حض وترغيب في تنظيف المساجد من كل ما يطرأ عليها من الأوضار والأدناس حتى الكناسات القليلة، والقمامات الضئيلة في إزالتها أجور تكتب وتعرض على النبي الهادي الأمين ﷺ، فإذا كان هذا الأجر في الأشياء الضئيلة الخفيفة ففي الكبيرة أوفر وأعظم. وعن سمرة بن جندب قال: «أمرنا رسول الله -ﷺ- أن نتخذ المساجد في ديارنا وأمرنا أن ننظفها»، رواه أحمد[٧] ورواه أبو داود ولفظه: «كان يأمرنا بالمساجد أن نصنعها في ديارنا ونصلح صنعتها ونطهرها»[٨].

وكان تعظيم المسجد بالخدمة مشروعًا في الأمم الماضية، ألا ترى أن الله حكى عن حنة أم مريم أنها لما حبلت نذرت لله تعالى أن يكون ما في بطنها محررا، يعنى عتيقا يخدم المسجد الأقصى ولا يكون لأحد عليه سبيل، ولولا أن خدمة المساجد مما يتقرب به إلى الله لما نذرت به، وهذا معنى قول ابن عباس: «نذرت لك ما في بطني يعني محررًا للمسجد يخدمها» وفى لفظ «يخدمه»، وساق البخاري- رحمه الله- حديثًا عن أبى هريرة رضي الله عنه أن امرأة أو رجلا كانت تقم[٩] المسجد ولا أراه إلا امرأة، فذكر حديث النبي ﷺ أنه صلى على قبره[١٠].

ومما ينبغي أن تصان عنه المساجد البزاق فيها

لحديث: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»[١١].

وإذا بدر من المسلم البصاق وهو في المسجد فليبزق في ثوبه ويحك بعضه ببعض، وإن كان في غير المسجد يبصق عن يساره أو تحت قدمه لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رأى نخامة[١٢] في قبلة المسجد فأقبل على الناس فقال: ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد فليقل هكذا، ووصف القاسم، فتفل في ثوبه، ثم مسح بعضه على بعض»[١٣].

ولا يجوز لأحد أن يتعمد البصاق في المسجد، لكن لو كان فعل ذلك لعذر فما كفارة ذلك. قال: يدفنها لئلا يؤذي إخوانه المسلمين برؤيتها أو التقذر منها؛ لأن النفوس تتقزز من ذلك وتنفر منه وتستقبحه، فإن كانت الأرض مبلطة فيزيلها بالحك حتى لا يبقى لها أثر.

ويدلك بصاقه برجله اليسرى[١٤] لما روي «عن أبي العلاء بن الشخير عن أبيه قال: رأيت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تنخع فدلكه برجله اليسرى». ومن رأى من يبصق في المسجد لزمه الإنكار عليه ومنعه منه إن قدر، ومن رأى بصاقا أو نحوه في المسجد فالسنة أن يزيله بدفنه أو إخراجه ويستحب تطييب محله[١٥]. وأما ما يفعله كثير من الناس إذا بصق أو رأى بصاقا دلكه بأسفل مداسه الذي داس به النجاسة والأقذار فحرام؛ لأنه تنجيس للمسجد أو تقذير له، وقد صرح نبي الهدى والرحمة -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بنهي من أكل ثُوما أو بصلا مما له رائحة كريهة عن قربان كل مسجد. فعن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «من أكل الثوم و البصل والكراث فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى بنو آدم». متفق عليه[١٦].

ويلحق بها كل ما له رائحة كريهة من المأكولات وغيرها كالفجل لمن كان يتجشأ، ومن به جروح معفنة، أو يتعاطى شرب الدخان، أو كان قذر الثياب منتن الرائحة؛ لأنه يؤذي إخوانه المسلمين بما يصدر منه من روائح مستقذرة ومسترذلة، ولهذا سنَّ الاغتسال ولبس أحسن الثياب والتطيب للجمعة والعيد والإحرام.

فينبغي لكل مسلم ألا يدخل المسجد إلا وهو طيب الرائحة منظف نفسه وثيابه عن كل ما من شأنه يزكم نفوس المصلين ويؤذيهم ما ينبعث منه من روائح قذرة منتنة تصدر عمن أكل طعاما منهيا عنه كالثوم والكراث والبصل، أو تنم عن عدم شعور المسلم وعدم مبالاته بما يقلق إخوانه المصلين مما يزعجهم ويذهب عنهم الخشوع والارتياح في الصلاة، أو ينتج عنه سب هذا الرجل والوقوع في عرضه لإهماله النظافة في ملبسه وبدنه مما قد يتولد عنه أمراض قد تكون مزمنة، كرائحة الدخان وما شابهه؛ لأنه مضر لشاربه وشامه طبيا، ولا يعذر في هذا أحد يستطيع التخلص من الروائح المستكرهة حتى العامل الذي يمارس عملا شاقا يتقاطر منه العرق بكثرة يلزمه التنظف وإزالة ما يعلق بجسمه وثيابه من أدران وقاذورات، ولا سيما عند حضوره للصلاة في المسجد ينبغي أن يكون نزيها طاهرا، نقي الثياب، طيب الرائحة، حتى لا يتضايق منه المصلون ويتأذى منه

الملائكة وسواء في ذلك من يصلي ويطوف في الحرم المكي أو يصلي في غيره من المساجد.

ومما يجب أن تنزه عنه بيوت الله المطهرة اللغو والفحش واللغط واللهو والعبث وحديث الدنيا الشاغل عن الخشوع في الصلاة والتفرغ لذكر الله، وأن تتخذ كما أرادها الله بيوت علم وعبادة وتعليم، ومصادر إشعاع ومركز توجيه، يقول المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام: «من جاء مسجدي هذا لم يأت إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره»[١٧]. وفي هذا دليل على جواز التدريس في المسجد خلافا لمالك[١٨]. ولعله منع رفع الصوت المشوش[١٩] فمن جاء إلى المسجد معلما أو متعلما كالمجاهد كلاهما يريد إعلاء كلمة الله وفي عبادة نفعها متعد لعموم المسلمين، أما من ينظر إلى متاع غيره فهو متحسر محروم عما ينتفع به الناس في الدنيا من العلم والعمل والثناء الجميل، وفي العقبى من الدرجات والجزاء الطويل[٢٠].

وعن الحسن البصري مرسلا قال: قال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم في أمر دنياهم فلا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة»[٢١]. ففي هذا ذم للكلام والمحادثة في المساجد في أمور دنيوية؛ لأن المساجد بنيت للعبادة والطاعة لا للهو والانشغال بالدنيا كما يفعل بعض من يخططون لرحلات التنزه والترف في المساجد، هؤلاء ينهى عن مجالستهم ومصاحبتهم وكذلك من يتخذون من رحبات المسجد ملتقيات للغيبة والنميمة والحديث عن المساهمات والزيجات وزخارف الدنيا ومفاتنها البراقة، وفى هذا تهديد ووعيد لهم لظلمهم ووضعهم الشيء في غير موضعه؛ لأن المساجد مواضع عبادة وذكر، لا لحديث الدنيا وحطامها التافه الزائل، ومما تنزه عنه المساجد من أعمال أفراد المجتمع ممارسة البيع والشراء وسائر المكاسب الدنيوية[٢٢] لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ: «أنه نهى عن تناشد الأشعار في المسجد، وعن البيع والشراء فيه وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة»[٢٣].

فالمساجد إنما أقيمت لذكر الله وما يتعلق به من أمور الآخرة، وليست من أسواق الدنيا فلا يتخذها أحد لذلك، ولا بأس بوضع الصدقة ليأكل منها كل فقير كما فعل النبي -ﷺ- حين علق القنو[٢٤] في المسجد وقسم المال فيه لحديث أنس -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- قال: «أتي رسول الله -ﷺ- بمال من البحرين فقال: انثروه في المسجد وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، إذ جاء العباس -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- فقال يا رسول الله: أعطني؛ فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلا، فقال له رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: خذ فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال رسول الله ﷺ: اؤمر بعضهم يرفعه إلي، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم ذهب يقله فقال يا رسول الله: أؤمر بعضهم يرفعه، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا. فنثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله ثم انطلق، فما زال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يتبعه

بصره حتى خفي علينا عجبا من حرصه، فما قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثم منها درهم»[٢٥].

أما جواز تعليق القنو فقد دل عليه حديث عوف بن مالك الأشجعي قال: «خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبيده عصا وقد علق رجل قنو حشف فجعل يطعن في ذلك القنو ويقول: لو شاء رب هذه الصدقة تصدق بأطيب من هذا»[٢٦] ويستفاد من ذلك جواز وضع ما يعم نفعه في المسجد كالماء لشرب من يعطش، والطعام لمن يأكل، وكذلك حديث أبى هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له: لا أربح الله تجارتك»[٢٧].

ومما تصان عنه المساجد من أفعال أفراد المجتمع إنشاد الضالة والبحث عن واجدها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سمع رجلا ينشد[٢٨] في المسجد ضالة فليقل: لا أداها الله إليك فإن المساجد لم تبن لهذا»[٢٩]. وعن بريدة: «أن رجلا نشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبي– صلى الله عليه وسلم: لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له»[٣٠]. ففي هذين النصين دلالة على جواز الدعاء على الناشد في المسجد بعدم الوجدان معاقبة له في ماله ومعاقبة بنقيض قصده، حيث استخدم بيوت الله لما لم تبن له. فبناؤها لذكر الله والصلاة والعلم والمذاكرة في الخير ونحوها.

أما نشدان الضالة وتعريف اللقطة وما في معناهما من البيع والإجارة والسلم والعقود الأخرى فليس مكانها المسجد، وإنما الأسواق والمحلات التجارية المعدة له والمجامع الأخرى غير المساجد[٣١]. أما تناشد الأشعار في المسجد فمما يدل على عدم جوازه ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تناشد الأشعار في المسجد»[٣٢] والمراد بها المذمومة، ولما كان الغالب في الشعر المذموم أطلق النهي، وقيل: النهي محمول على التنزيه أما أحاديث الرخصة في إنشاد الشعر الحسن في المسجد فتدل على بيان الجواز، فقد روى سعيد بن المسيب قال: «مر عمر بحسان بن ثابت وهو ينشد في المسجد فلحظ إليه فقال: قد أنشدت وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أسمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: أجب عني. اللّٰهم أيده بروح القدس، قال: اللّٰهم نعم»[٣٣].

وعن جابر بن سمرة قال: شهدت النبي –صلى الله عليه وسلم– أكثر من مئة مرة في المسجد وأصحابه يتذاكرون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية فربما تبسم معهم». رواه أحمد[٣٤]. وفي الترمذي عن عائشة قالت: «كان رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ينصب لحسان منبرا في المسجد فيقوم عليه يهجو الكفار»[٣٥] وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد[٣٦].

وفي الترمذي عن أنس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: «أن النبي –صلى الله عليه وسلم– دخل مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يابن رواحة بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وفي حرم الله تقول الشعر، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم–:

خل عنه يا عمر، فما هي أسرع فيهم من نضح النبل»[٣٧].

أو تحمل أحاديث الرخصة على الشعر الحسن المأذون فيه كهجاء حسان للمشركين ومدح النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصحابته الطيبين، ومدح الدين وإقامة الشرع وغير ذلك، ويحمل النهي على مفاخرة الجاهلية والهجاء وسب المؤمنين ونحو ذلك، وقال الشافعي: الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح.

وقد ورد هذا مرفوعًا في غير حديث، فروى أبو يعلى عن عائشة قالت: «سئل رسول الله -ﷺ- عن الشعر فقال: «هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح»، قال العراقي: وإسناده حسن[٣٨].

ومما لا يجوز فعله في المسجد الاستصباح بالأدهان النجسة والمتنجسة، فإن دخان النجاسة نجس، وإدخال النجاسات المساجد ممنوع، ولا شك أن ما ينفصل من الدخان يؤثر في الحيطان وذلك يؤدي إلى تنجيسه فلا يجوز[٣٩].

وتتأكد مراعاة حرمة المسلم فلا يروع ولا يؤذى ولا سيما في المسجد، فإن دخل المسجد بسهام فليمسك بنصالها لئلا يخدش مسلما أو تقعره، وإن دخله برمح فليمسك بسنانه خوفًا من أن يصيب به أحدا فيجرحه لما في صحيح البخاري: حدثنا سفيان: أمسك بنصالها، وفيه أيضا: حدثنا أبو بردة بن عبد الله قال: سمعت أبا بردة عن أبيه عن النبي -ﷺ- قال: قلت لعمرو: أسمعت جابر بن عبد الله يقول: «مر رجل في المسجد ومعه سهام فقال له رسول الله ﷺ قال: من مرَّ في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بنبل فليأخذ على نصالها لا يعقر بكفه مسلما»[٤٠].

وتتأكد رعاية المسلم في المساجد والمجامع والأسواق فمتى حمل نبلا أو سلاحا أو شيئا حادا كرمح وسيف وخنجر فليمسك بحده كيلا يصيب مسلما بأذى، وأما إقراره -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الحبشة على لعبهم بالحراب والسيوف في المسجد يوم العيد فهو مخصوص بها أقره ﷺ من جهة التدريب على الحرب والتمرين فيه والتنشيط عليه، فهو من باب المندوب، ويلتحق به ما في معناه من الأسباب والوسائل المعينة على الجهاد وأنواع البر[٤١]. وفي البخاري «أن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد رأيت رسول الله -ﷺ- يوما على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد ورسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم». زاد إبراهيم بن المنذر: حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن أبي شهاب، عن عروة، عن عائشة قال: «رأيت النبي -ﷺ- والحبشة يلعبون بحرابهم».

* * *

الهوامش:

(١) البخاري في صحيحه في كتاب الوضوء: باب يهريق الماء على البول ١/٦٢، ومسلم في صحيحه في كتاب الطهارة: باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها ١ / ٢٣٦.

(٢) الدور: المحال التي فيها الدور، ومنه قوله تعالى: سأوريكم دار الفاسقين. الأعراف: آية/١٤٥؛ لأنهم كانوا يسمون المحلة التي اجتمعت فيها قبيلة دارا، ومنه الحديث: «ما بقيت دار إلا بني فيها مسجد» نيل الأوطار ٢/١٦٠.

(٣) تنظف: تطهر، والمراد: تنظفها من الوسخ والدنس، وتطيب: أي بطيب الرجال، وهو ما خفي لونه وظهر ريحه، فإن اللون ربما شغل المصلي، ويجوز أن يحمل التطييب على التجمير في المسجد كما في نيل الأوطار ٢ / ١٦١.

(٤) ابن ماجة في سننه في كتاب المساجد والجماعات: باب تطهير المساجد وتطييبها ١/٢٥٠، والترمذي في جامعه في أبواب الصلاة: باب ما ذكر في تطييب المساجد ٢/٤٨٩-٤٩٠، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب اتخاذ المساجد في الدور ١/٣١٤.

(٥) القذى: ما يقع في العين وفي الشراب، جمعه أقذاء وقذى، وقذيت عينه كرضي: وقع فيها القذى، وقذت تقذى قذيا: قذفت الغمص والرمص

كما في القاموس ٤/٣٧٦-٣٧٧ مادة (القذى). وفي حاشية سنن أبي داود ١/٣١٦ القذاة: ما يقع في العين من تراب أو طين أو وسخ.

(٦) أبو داود في سننه في كتاب الصلاة: باب في كنس المساجد ١/٣١٦-٣١٧، والترمذي في جامعه في فضائل القرآن: باب ٥/١٧٨-١٧٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال: وذاكرت به محمد بن إسماعيل (أي البخاري) فلم يعرفه واستغربه، قال محمد: ولا أعرف للمطلب بن عبد الله سماعا من أحد من أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا قوله: حدثني من شهد خطبة للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. أهـ.

(٧) أحمد في مسنده: ٥/١٧.

(٨) أبو داود في سننه في كتاب الصلاة: باب اتخاذ المساجد في الدور ١/٣١٥.

(٩) من قم الشيء يقم قما: أي كنسه، والقمامة: بضم القاف: الكناسة كما في عمدة القاري ٤/٢٣٠.

(١٠) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٤/٢٣٢- ٢٣٣.

(١١) مسلم صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها ١/٣٨٩، والبخاري في صحيحه: كتاب الصلاة ١/١٠٧، باب كفارة البزاق في المسجد. والبصاق والبزاق والبساق بمعنى واحد؛ لأن حروف الصفير تتناوب كما في المجموع شرح المهذب ٤/٢٩، ففيها ثلاث لغات.

(١٢) النخامة: هي ما تخرج من الصدر، وقيل: النخامة من الصدر، والنخاعة من الرأس، كما في نيل الأوطار ٢/٣٨٨ وفتح الباري ١/٥٠٨؛ المغنى ٢/١٣، وكشف المخدرات ١/٧٧.

(١٣) النسائي في سننه: بأي الرجلين يدلك بصاقه ٣/٥٣.

(١٤) مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها ١/٣٨٩.

(١٥) المجموع شرح المهذب ٤/٢٩-٣٠.

(١٦) البخاري في صحيحه في الأذان: باب ما جاء في الثوم النيئ والبصل والكرات ١/٢٠٧، ومسلم في صحيحه المساجد ومواضع الصلاة: باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها ١/٣٩٤-٣٩٥.

(١٧) ابن ماجة في سننه في المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/٨٢-٨٣، وقال صاحب الزوائد: إسناده صحيح على شرط مسلم، ومنتقى الأخبار بشرح نيل الأوطار ٢/١٦٥.

(١٨) القوانين الفقهية ص ٣٧.

(١٩) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/٤٧٢.

(٢٠) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/٤٧٢.

(٢١) مشكاة المصابيح مع مرقاة المفاتيح ١/٤٧٢ وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان.

(٢٢) روضة الطالبين ٢/٣٩٣.

(٢٣) الترمذي في جامعه في أبواب الصلاة: باب ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد ٢/١٣٩ وقال: حديث حسن، والنسائي في سننه ٢/٤٧-٤٨.

(٢٤) القنو: العذق، والاثنان قنوان، والجماعة أيضا قنوان كما في صحيح البخاري ١/١٠٨ باب القسمة وتعليق القنو في المسجد. والقنو: العرجون بما فيه كما في فتح الباري ١/٥١٦.

(٢٥) البخاري في صحيحه: باب القسمة وتعليق القنو في المسجد ١/١٠٨-١٠٩.

(٢٦) النسائي في سننه في الزكاة: قوله عز وجل: «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون» ٥/٤٣-٤٤، وفتح الباري ١/٥١٦، والقنا: بكسر القاف والفتح مقصور هو العذق. بما فيه من الرطب، والقنو: بكسر القاف أو ضمها وسكون النون. والحشف بفتحتين هو: اليابس الفاسد من التمر، حاشية الإمام السندي على سنن النسائي ٥/٤٤.

(٢٧) النسائي، ففي سننه النهي عن البيع والشراء في المسجد، وعن التحلق قبل صلاة الجمعة ٢/٤٧-٤٨ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢٨) ينشد: بفتح الياء وضم الشين، يقال: نشدت الضالة بمعنى طلبتها، وأنشدها: عرفتها، والضالة: تطلق على الذكر والأنثى، والجمع ضوال كدابة ودواب. وهي مختصة بالحيوان ويقال لغير الحيوان: ضائع ولقيط، كما في نيل الأوطار ٢/١٦٤.

(٢٩) النسائي بنحوه عن جابر ٢/٤٨-٤٩، النهي عن إنشاد الضالة في المسجد. ونيل الأوطار ٢/١٦٤، وابن ماجة في سننه في كتاب المساجد والجماعات ١/٢/٢٥٢: باب النهي عن إنشاد الضوال في المسجد. ومسلم في المساجد ١/٣٩٧. وأحمد في مسنده ٢/٣٤٩، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة: باب في كراهية لإنشاد الضالة في المسجد ١/٣٢١.

(٣٠) ابن ماجه في سننه في كتاب المساجد والجماعات: باب النهي عن إنشاد الضوال في المسجد ١/٢٥٢، ونيل الأوطار ٢/١٦٤، ومسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد ١/٣٩٧.

(٣١) نيل الأوطار ٢/١٦٤.

(٣٢) النسائي في سننه: النهي عن تناشد الأشعار في المسجد ٢/٤٨.

(٣٣) النسائي في سننه: الرخصة في إنشاد الشعر الحسن في المسجد ٢/٤٨ وأيده: قوه، وروح القدس: جبريل، كما في نيل الأوطار ٢/١٦٩، وصحيح البخاري بشرح عمدة القاري ٤/٢١٧.

(٣٤) أحمد في مسنده ٥/٩١، والترمذي في سننه في الأدب: باب ما جاء في إنشاد الشعر ٥/١٤٠، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣٥) الترمذي في سننه في الأدب: باب ما جاء في إنشاد الشعر ٥/١٣٨.

(٣٦) الحاكم في مستدركه ٣/٤٨٧، والذهبي في التلخيص ٣/٤٨٧ وصححه.

(٣٧) الترمذي في سننه في الأدب: باب ما جاء في إنشاد الشعر ٥/١٣٩، وقال: حديث حسن صحيح، والنضح: الرمي بالنبل كما في القاموس ١/٢٥٣ مادة (نضح)، والنبل: السهام بلا واحد كما في القاموس ٤/٥٤ مادة (النبل)، وفي فتح الباري ١/٥٤٦ (السهام العربية).

(٣٨) نيل الأوطار ٢/١٦٧-١٦٨ بتصرف. وعارضة الأحوذي ٢/١١٩ -١٢٠.

(٣٩) أعلام الساجد ص ٣٦١، والإقناع ٢/٦١.

(٤٠) البخاري في صحيحه: باب يأخذ بنصول النبل إذا مر في المسجد، وباب المرور في المسجد ١/١١٦.

(٤١) أعلام الساجد ص ٣٥٥، وعمدة القاري ٤/٢٢٠، وفتح الباري ١/٥٤٩.

جهود دار العلوم في نشر الثقافة الإسلامية

(٣)

بقلم: **الأستاذ محمد ساجد القاسمي** (*)

المقررات الدراسية في الحديث

تُعنى دارالعلوم - والجامعات والمدارس التابعة لها- بتدريس كتب الحديث بشكل لا يُوجَد له نظير في جامعات العالم، حيث يتم في السنة الثامنة من الدراسة- وهي سنة التخرج- تدريسُ صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي كاملة، وأبواب مختارة من سنن النسائي، وسنن ابن ماجه، وشرح معاني الآثار للطحاوي، والموطا بكلتا الروايتين: رواية يحيى بن يحيى المصمودي، ورواية الإمام محمد بن حسن الشيباني، وكتاب الشمائل لأبي عيسى الترمذي.

كذلك يُدرَّس مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي في السنة السابعة، وألفية الحديث للشيخ محمد منظور النعماني، ومشكاة الآثار للشيخ محمدميان الديوبندي في السنتين الثالثة والرابعة، كما يُدَرَّس في السنوات الأخرى من كتب علوم الحديث المقدمةُ لابن الصلاح، ونخبة الفكر شرح نزهة النظر لابن حجر، والمقدمة للشيخ عبد الحق الدهلوي.

ولا بد للطالب الذي ينوي التخرُّج في دارالعلوم ونيل شهادة الفضيلة منها أن يقرأ هذه الكتب في السنة الثامنة النهائية ويجتاز امتحانها السنوي بنجاح.

أسلوب تدريس الحديث

أما أسلوبهم في تدريس الحديث فهم يُركِّزون عنايتهم على تدريس كتب الحديث هذه روايةً ودرايةً وضبطًا وتحقيقًا، وذلك بأن يقرأ الطلاب على المشايخ وهم يسمعون، أو يقرأ المشايخ عليهم وهم يسمعون، ثم يشرحون متن الحديث وإسناده بتحقيق وإمعان، ويُبَيِّنُون أسماء الرجال، ودرجات الرواة، والمذاهب الأربعة الفقهية، ويقومون بالدراسة المقارنة بينها، والمحاكمة الاستدلالية فيها، وترجيح المذهب الحنفي من غير تعصب ولا تعسف.

هذا إلى مناقشة القضايا والمشكلات والتحديات المعاصرة والبحث عن الحلول لها في ضوء الأحاديث الشريفة.

وقد أَعْجَبَ أسلوبُ تدريس الحديث في دارالعلوم العلماء الزائرين لها، فقد قال الشيخ رشيد رضا المصري لما زار دار العلوم وحضر دروس العلامة محمد أنورشاه الكشميري: «مارأيت مثل هذا الأستاذ الجليل قط».

وقد أصبح هذا الأسلوب المتبع في دار العلوم لتدريس الحديث ميزة من مزاياها، لا يشاركها فيها

(*) أستاذ بالجامعة.

مدرسة أو جامعة من جامعات العالم. الأمر الذي جعل طلاب الحديث في مختلف بقاع الأرض من أقطار الهند، وبورما، وأفغانستان، وماليزيا، وبخارا وما إليها، جعلهم يتوافدون إلى دار العلوم وينهلون من منهلها العذب الزلال. فالمتخرجون منها أو تلاميذهم أو من تَلْمَذوا عليهم هم الذين يزِينُون دكَّة تدريس الحديث في كثيرمن المدارس والجامعات التي تتبعها في المنهج التعليمي والتربوي.

خصائص تدريس الحديث

إنَّ أسلوب تدريس الحديث هذا يتضمَّن خصائص وميزات تتلخص فيما يأتي:

١- إلقاء الضوء على غرض الشارع من النصوص التي يعتصم بعُراها أهل كل مذهب من المذاهب الأربعة، إن كان هناك فيه شيء من الغموض يشرحوه شرحًا يرتاح له القلب.

٢- إنهم لا يُنِيطون شرح الأحاديث المشكلة والمتعارضة بلفظ واحد أو طريق واحد، بل يتفقدون جميع الأحاديث المروية- عن طرق مختلفة للحديث- ويتوخون فيها لفظ الشارع.

٣- إنهم يعتنون أشدَّ اعتناء في إفصاح منشأ ما وقع بين الأمة من الاختلاف البين في الأعمال التي جرى التعامل بها- مأثورًا- في الأمة كرفع اليدين وتعيين مواضعه، والوتر وتعيين ركعاته، وصلاة الجمعة وشروط أدائها، وما شاكلها من المسائل الأخرى التي تباينت فيها الأقوال، فهم يعتنون- في الدرس- كثيرًا بهذه الناحية ويقرِّبون هذا الاختلاف إلى أذهان الطلبة، حتى يعرفوا أنه لم يكن بد من هذا الاختلاف، وأنَّ أصحاب المذاهب معذورون فيه، وهذا أمر مهم جِدًّا، وأنَّ الإهمال لهذا الجانب يُفضي إلى سوء الظن بالتعامل والنقل، وإنه أقوى حجة في الباب.

٤- إنهم لا يتعصَّبون لأقوال الأحناف، بل يحرصون دائمًا على الأخذ بالكتاب والسنة، والعمل بما يوافق السنة الصحيحة، وإن كان يخالف ذلك آراء الأحناف، عملاً بما رُوِيَ عن الإمام الأعظم أبي حنيفة من أنه ما صحَّ عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مذهبي.

٥- إنهم يوجِّهون الطلاب إلى ما في الأحاديث من نواحٍ خُلقية، لتكون حياتهم طاهرة نقية متحلية بالأسوةٍ النبوية.

٦- وذلك مع كمال التأدّب مع الأئمة الأعلام والاحترام لآرائهم فلا يصدر من أحد – من قول أو فعل- ما يَمَسُّ كرامة الأئمة وعلماء الأمة السابقين، بل جميع الطلبة والأساتذة يخضعون لمكانتهم العلمية الكبيرة السامية، ويشكرون لجهودهم الجميلة المشكورة، وأعمالهم الرائعة في نشر الدين وحفظه، ويعترفون بجميلهم الذي أسدوه إلى الأمة الإسلامية، وأبقوا به الدين في صورته الأصلية النقلية.

٧- وإنهم يُفضِّلون الجمع بين ما تعارض من الروايات قدر ما أمكن، وإذا رجحوا مذهبًا ومالوا إلى العمل بحديث لم يهجروا ما عارضه أيضًا ولا التجؤوا إلى تضعيفه، بل جعلوا له محمِلاً يرتاح له القلب وتطمئنُّ به النفس(٦).

مبنى دار الحديث الشامخ

وقد بلغ بهم اهتمامهم بالحديث الشريف

وحرصهم عليه أنهم أقاموا مبنى شامخًا يُسمّى «دارالحديث» لتدريس الحديث وحده، ولعلّه أوّل مبنى مستقل أقيم لدراسة الحديث في التاريخ.

وقد قُبِل – ولايزال يُقبلُ – عدد ملحوظ من الطلاب في السنة الثامنة النهائية المختصة بدراسة الحديث، والعدد يتزايد على مر السنين، حتى بلغ في هذه السنوات إلى ١٤٠٠ طالبًا.

إن حلقة الحديث الكبيرة العدد من الطلاب كهذه قد سبق لها نظير في تاريخ تدريس الحديث في الماضي. أما اليوم فلا يكاد يوجد لها نظير في مدارس وجامعات العالم.

مؤلفاتهم في الحديث

أما تآليفهم في الحديث وعلومه فقد تنوَّعت وتكاثرت، ولم يتركوا فنًا من فنونه، ولا جانبًا من جوانبه إلا طرقُوه، وأتوا بالعجب العجاب، وبما يُحيِّر الألباب. وإليك أهمَّ مؤلفاتهم في الحديث وعلومه:

أ- شروح دواوين الحديث وحواشيها

قد قام كثيرمن العلماء بشرح أمهات كتب الحديث وغيرها من الكتب الحديثية أو تحلية جيدها بالحواشي، وهي شبه شروح، وفيما يلي تفاصيلها:

صحيح البخاري

الحواشي على صحيح البخاري للشيخ أحمد علي السهارنفوري، ولامع الدراري على صحيح البخاري للعلامة المحدث الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في ١٠ مجلدات، وهو أماليه في الدرس التي ضبطها بالأردية صاحبُه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، ثم نقلها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى العربية و علَّق عليها وطبعها في ١٠ مجلدات.

وفيض الباري للعلامة محمد أنور شاه الكشميري، وهو شرح حافل على صحيح البخاري في ٤ مجلدات، و هذا الشرح أمالي العلامة في درس صحيح البخاري قيَّدها صاحبه الشيخ بدرعالم الميروتي. ولهذا الشرح خصائص لا تُوجد في غيره من شروح الصحيح، وهي:

الأولى: إشباع الموضوع من سائر المظان البعيدة، والتقاط غرر النقول في الباب.

الثانية: استيعاب مذاهب الأئمة الأربعة وأقوال العلماء، وترجيح ما هو الراجح بأصول دقيقة هي من خصائص المؤلف بغاية النصفة.

الثالثة: العناية بذكر ما لم يذكره شُراح صحيح البخاري، والاكتفاء بتلخيص كلام الشارحين في مواضع، والإحالة عليه في مواضع.

الرابعة: اشتماله على نفائس تحقيقات من مشكلات العلوم وأبحاث دقيقة من البلاغة والعربية وأصول الفقه وعلم التوحيد وغيرها.

الخامسة: اشتماله على النقد العلمي والتنبيه على زلَّات الشارحين مع رعاية جلالة قدرهم بنزاهة اللسان[٧].

وفضل الباري في فقه البخاري للشيخ عبدالرؤوف الهزاروي. والنبراس الساري في أطراف البخاري للشيخ عبد العزيز الغونجراوي، هذ ه الشروح بالعربية.

وأما بالأردية ففضل الباري شرح صحيح البخاري للعلامة شبير أحمد العثماني، وتحفة الباري بحل مشكلات البخاري للشيخ محمد إدريس

الكاندهلوي، وفرحة القارئ عن صحيح البخاري للشيخ شير زمان الهزاروي، والكوثر الجاري في شرح البخاري للشيخ عبد الرحمن المرداني، وتلخيص البخاري للشيخ شمس الضحى الرنكوني، وأنوار الباري للشيخ أحمد رضا البجنوري، وإمداد الباري للشيخ عبد الجبار الأعظمي، وإسعاد الباري للشيخ صديق أحمد البانـدوي، وإرشاد القارئ إلى صحيح البخاري للشيخ المفتي رشيد أحمد اللدهيانوي، وإيضاح البخاري للشيخ فخر الدين المراد آبادي، وإنعام الباري في شرح البخاري أمالي الشيخ المفتي محمد تقي العثماني، وإحسان الباري للشيخ سر فراز صفدر، وجواهر البخاري للشيخ القاضي زاهد الحسيني، وتحفة القارئ شرح البخاري للشيخ سعيد أحمد البالنبوري.

أما في تراجم أبواب البخاري فشرح تراجم البخاري لشيخ الهند محمود حسن الديوبندي، وشرح التراجم للشيخ ماجد علي المانوي، وشرح تراجم البخاري للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، والقول الفصيح في نقد أبواب الصحيح للشيخ فخر الدين المراد آبادي، و الأبواب والتراجم للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

صحيح مسلم

أما شروح صحيح مسلم فأهمها فتح الملهم للعلامة شبير أحمد العثماني في ٣ مجلدات، و تكملته للشيخ محمد تقي العثماني في٦ مجلدات. ففتح الملهم بتكملته موسوعة حديثية ضخمة لقيت قبولا وإعجابًا في البلاد العربية.

والحل المفهم لصحيح مسلم للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وهو أماليه ضبطها الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، ثم علق عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وطبعه في مجلدين، ونعمة المنعم في شرح المجلد الثاني لصحيح مسلم للشيخ نعمة الله الأعظمي.

أما مقدمة صحيح مسلم فقد شرحها غير واحد من العلماء، أهمها شرح مقدمة مسلم للشيخ علي أحمد الأعظمي، وهو بالعربية في مجلد ضخم، ولم يُطبع، ونعمة المنعم للشيخ نعمت الله الأعظمي، وفيض المنعم للشيخ المفتي سعيد أحمد البالنبوري.

الجامع للإمام الترمذي

أما حواشي وشروح الجامع للترمذي فهي: الحواشي على جامع الترمذي للشيخ أحمد علي السهارنفوري، والكوكب الدري للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، و النفح الشذي للشيخ نفسه، والورد الشذي على جامع الترمذي لشيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعرف الشذي، والعرف الذكي كلاهما للشيخ العلامة محمد أنورشاه الكشميري، ومعارف السنن للشيخ محمد يوسف البنوري، وهدية الأحوذي للشيخ محمد إبراهيم البلياوي، والطيب الشذي للشيخ أشفاق الرحمن الكاندهلوي، والمعارف المدنية أمالي شيخ الإسلام حسين أحمد المدني على الترمذي ضبطها الشيخ طاهر حسن الأمروهوي، والتنقيح الشذي للشيخ شمس الحق الأفغاني بالعربية، وتقرير الترمذي لشيخ الهند محمود حسن الديوبندي بالعربية، ومعارف الترمذي

للشيخ عبد الرحمن الكامل فوري، وشرح الترمذي للشيخ السيد بادشاه كل، وخزائن السنن في شرح الترمذي للشيخ سرفراز صفدر، وشرح الترمذي للشيخ موسى خان روحاني بازي، وشرح الترمذي للشيخ عبد الستار الأعظمي، ودرس ترمذي للشيخ المفتي محمد تقي العثماني، وعلل الترمذي للشيخ فضل الله الرحماني، وشمائل الترمذي للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكشف النقاب عما يقوله الترمذي وفي الباب للشيخ الدكتور حبيب الله مختار.

السنن للإمام أبي داود

أما شروح وحواشي سنن أبي داود فهي: بذل المجهود في شرح سنن أبي داود للشيخ خليل أحمد السهارنفوري في ٢٠ مجلدًا، وأنوار المحمود للشيخ أبي العتيق صديق أحمد النجيب آبادي، وهو أمالي كل من شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعلامة محمد أنور شاه الكشميري، و العلامة شبير أحمد العثماني، والدر المنضود أمالي الشيخ العلامة رشيد أحمد الكنكوهي، حققها وعلق عليها الشيخ محمد عاقل السهارنفوري، وشرح أبي داود للشيخ ماجد علي المانوي، والتعليق المحمود حاشية سنن أبي داود للشيخ فخر الحسن الكنكوهي، وحاشية بذل المجهود للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

السنن للإمام النسائي

أما شرح السنن للإمام النسائي فهو: الفيض السمائي أمالي الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، قام بتحقيقها والتعليق عليها الشيخ محمد عاقل السهارنفوري، وحواشي سنن النسائي للشيخ أشفاق الرحمن الكاندهلوي.

السنن للإمام ابن ماجه

وأما شرح ابن ماجه فهو للشيخ محمد منظور النعماني بالعربية، ومصباح الزجاجة للشيخ أسعد قاسم السنبهلي، وحواشي سنن ابن ماجه لكل من الشيخ فخر الحسن الكنكوهي، والعلامة محمد أنور شاه الكشميري، وحاشية ابن ماجه للشيخ أشفاق الرحمن، ورفع الحاجة ترجمة سنن ابن ماجه للشيخ عبد الماجد.

موطا الإمام مالك

أما شرح الموطا فهو أوجز المسالك إلى موطا الإمام مالك للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في٦ مجلدات، وحاشية الموطا للشيخ أشفاق الرحمن الكاندهلوي.

شرح معاني الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي

أما شروح وحواشي شرح معاني الآثار فهي: أماني الأحبار للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في ٤ مجلدات، و مجاني الأثمار للشيخ محمد عاشق إلهي البرني المدني، وتبهيج الراوي بتخريج أحاديث الطحاوي للشيخ نفسه، و تقريب شرح معاني الآثار للشيخ نعمت الله الأعظمي في ٣ مجلدات، وإيضاح الطحاوي للشيخ المفتي شبير أحمد القاسمي، ودرس طحاوي للشيخ جميل أحمد السكرودوي، والكلام الحاوي على الطحاوي للشيخ سرفراز خان صفدر، ومصباح الطحاوي للشيخ أسعد الله الرامفوري، وحاشية الطحاوي للشيخ محمد أيوب السهارنفوري، وتصحيح الأغلاط الكتابية الواقعة في النسخ الطحاوية للشيخ نفسه.

مشكاة المصابيح

أما شرح وحواشي مشكاة المصابيح فالحواشي

على المشكاة للشيخ أحمد علي السهارنفوري، والتعليق الصبيح شرح مشكاة المصابيح للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي في ٧ مجلدات، ومظاهر حق شرح المشكاة للشيخ قطب الدين الدهلوي، ومظاهر حق جديد شرح المشكاة للشيخ عبد الله جاويد الغازي فوري، ومعارف المشكاة شرح مشكاة المصابيح للشيخ عبد الرؤوف عالي، و شرح مشكاة المصابيح للشيخ موسى خان روحاني بازي، وحاشية المشكاة للشيخ نصير الدين الكامل فوري، وتنظيم الأشتات شرح المشكاة للشيخ أبي الحسن التشاتغامي.

كتاب الشمائل للترمذي

أما كتاب الشمائل فشرحه للشيخ أشفاق الرحمن، وخصائل نبوي للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وجمع الفضائل شرح الشمائل للشيخ محمد إسلام القاسمي.

تحقيق كتب الحديث والتعليق عليها

بجانب شرح كتب الحديث وتحليتها بالحواشي الشبيهة بالشروح اعتنوا بكتب التراث الحديثي، فقاموا بتحقيق عدد لابأس به من المخطوطات أو المطبوعات القديمة و أخرجوها إلى القراء الكرام محقّقة ومنقّحة، وأهمها:

جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد لمحمد بن محمد بن سليمان المغربي تحقيق الشيخ عاشق إلهي الميروتي أحد أصحاب الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وتاريخ الأسماء والثقات لابن شاهين تحقيق القاضي محمد أطهر المباركفوري، وكتاب الزهد الكبير للإمام البيهقي تحقيق الدكتور تقي الدين المظاهري الندوي، والمسند للإمام الحميدي، والسنن لسعيد ابن منصور، وكتاب الزهد والرقاق لابن المبارك، والمصنف لابن عبد الرزاق، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ومختصر الترغيب والترهيب، كلاهما للحافظ ابن حجر العسقلاني، وكشف الأستار عن زوائد البزاز للحافظ الهيثمي، هذه الكتب كلُّها حققها وعلَّق عليها الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، والصحيح لابن خزيمة تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى الأعظمي، وكتاب المغني في ضبط الأسماء لرواة الأنباء للشيخ محمد بن طاهر الفتني تحقيق الشيخ زين العابدين الأعظمي.

ونصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للإمام الزيلعي تحقيق وتعليق لفيف من العلما: الشيخ محمد يوسف الكاملفوري، والشيخ محمد يوسف البنوري، والشيخ أحمد رضا البجنوري، و بغية الألمعي لابن قطلوبغا الحنفي تحقيق وتعليق الشيخ عبد العزيز البنجابي، ونخب الأفكار شرح شرح معاني الآثار للعيني تحقيق الشيخ السيد أرشد المدني.

ولهم تعليقات نافعة على كتب الحديث وشروحها، مثل: آثار السنن للعلامة ظهير حسن شوق النيموي بتعليق العلامة محمد أنور شاه الكشميري، واللامع الدراري للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، و الكوكب الدري للشيخ نفسه، وبذل المجهود شرح سنن أبي داود للشيخ خليل أحمد السهانفوري، قد علق على جميعها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وأوجز المسالك للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وبذل المجهود للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والتعليق الممجد على موطا الإمام

محمد قد علق على هذه الثلاثة الشيخ تقي الدين المظاهري الندوي، ومعين اللبيب تعليق على ألفية الحديث للشيخ توقير عالم الفورنوي.

مؤلفاتهم في متون الحديث

ما زال – ولا يزال –حديث الرسول ﷺ موضع اهتمامهم ومصب عنايتهم، فألفوا – ولا يزالون– فيه الجديد والمزيد، وأضافوا إلى المكتبة الحديثية كتبًا و موسوعات ما زالت المكتبة على سعتها في حاجة إليها، من أهمها:

جامع الآثار، وتابع الآثار، والتشرف بمعرفة أحاديث التصوف، هي كلها للشيخ أشرف علي التهانوي، و إحياء السنن لبعض أصحابه، وإعلاء السنن للشيخ ظفر أحمد التهانوي في ١٨ مجلدًا، وقد تم تأليفه بأمر وإشراف الشيخ أشرف علي التهانوي، والتصريح بما تواتر في نزول المسيح للشيخ العلامة محمد أنور شاه الكشميري، والأربعين للشيخ محمد فخر الدين المراد آبادي، والسيف المجلى على المحلى للشيخ مهدي حسن الشاهجهانفوري، ومشكاة الآثار للشيخ محمد ميان الديوبندي، وألفية الحديث للشيخ محمد منظور النعماني، وزاد الطالبين للشيخ محمد عاشق إلهي البرني، وتعقيب التقليب الواقع في تهذيب التهذيب للشيخ محمد أيوب السهارنفوري، وحياة الصحابة للشيخ الداعية محمد يوسف الكاندهلوي في ٣ مجلدات. ومجموعة الأحاديث للتحفيظ للشيخ محمد توقير عالم الفورنوي.

كذلك ألفوا كتبًا في الحديث بالأردية لعامة المسلمين حرصًا على نشر رسالة السنة ومعارفها بينهم، أهمها:

ترجمان السنة للشيخ بدر عالم الميروتي في ٤ مجلدات، وجواهر الحكم له، ومعارف السنة للشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، وتجريد البخاري للشيخ محمد حيات السنبهلي، وانتخاب الصحاح الستة للقاضي زين العابدين الميروتي، وانتخاب الترغيب لعبد الله طارق، ومعارف الحديث للشيخ محمد منظور النعماني، وكتاب الفضائل ترجمة الشمائل للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

أصول الحديث وقواعده

كما ألفوا في أصول الحديث وقواعده، أو حلُّو جِيْد الكتب القديمة بالحواشي، منها قواعد في علوم الحديث للشيخ ظفر أحمد التهانوي، وعلم الحديث للشيخ أشفاق الرحمن الكاندهلوي، وجواهر الأصول في أصول الحديث للشيخ عبد الرحمن المرداني، وأصول الحديث على مذهب الحنفية للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وأحسن الخبر في مبادئ علم الأثر للشيخ محمد حسن البشاوري، وعلوم الحديث للشيخ عبيد الله الأسعدي، ومفتاح الحديث لعبد الجليل القاسمي، وبصائر السنة للشيخ أمين الحق المرداني في مجلدين.

الحديث أحد مصادر التشريع الإسلامي

لقد أثار المستشرقون والمتغربون موضوع حجية الحديث ومكانته التشريعية، وحاولوا التشكيك في كونه مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي، وقد تصدى للرد عليهم كثير من العلماء في العالم الإسلامي.

كذلك عالج مشايخ دارالعلوم وعلماؤها هذا الموضوع، فألفوا فيه كثيرًا من الكتب، منها: الفوائد

الملكوتيـة في أن الأحاديـث حجـة للـشيخ موسـى روحـاني بـازي بالعربيـة، وحجيـة الحديث لكـل مـن الـشيخ محمـد إدريـس الكانـدهلوي، والـشيخ محمـد طيب القاسمي، والشيخ المفتي محمد تقي العثماني، ونـصرة الحديث للشيخ حبيـب الـرحمن الأعظمـي، والانتـصار لـسنة سـيد الأبـرار للـشيخ محمـد طـاهر المـرداني بالعربيـة، ونتـائج إنكـار الحـديث للـشيخ سرفرازخـان صـفدر، والمـدخل إلى دراسـة الحـديث النبـوي الـشريف، ودور الحـديث في تكـوين المنـاخ الإسـلامي، همـا للـشيخ أبـو الحـسن عـلي النـدوي بالعربية.

كتابة الحديث وتدوينه

ومـن مؤلفـاتهم في موضـوع كتابـة الحـديث وتدوينـه: دراسـات في الأحاديـث النبويـة للـشيخ الدكتور مـصطفى الأعظمي، وكتابة حديث للشيخ منة الله الرحماني، وكتابة حديث للشيخ المفتي رفيع العـثماني، وتـدوين حـديث للـشيخ منـاظر أحـسن الكيلاني.

أسماء الرجال

أما مؤلفاتهم في أسماء الرجال فهي: فن أسماء الرجال للشيخ أسير أدروي، وعلـم أسماء الرجال للـشيخ تقـي الـدين المظـاهري النـدوي بـاللغتين: العربية والأردية.

تراجم أئمة الحديث ورجاله

أما تـآليفهم في تـراجم المحدثين فهـي: كـشف المغطى عـن رجـال الموطـا للـشيخ أشـفاق الـرحمن الكانـدهلوي، وتـراجم الأحبـار مـن رجـال شرح معـاني الآثـار للـشيخ محمـد أيـوب الـسهارنفوري، والحاوي في رجال الطحاوي للشيخ حبيب الرحمن الأعظمـي، وأعـلام المحـدثين، ونخـب مـن أسـماء رجـال الـصحاح كلاهمـا للـشيخ زيـن العابـدين الأعظمـي، و شـيوخ الإمـام أبي داود السجـستاني للشيخ حبيب الرحمن القاسمي الأعظمي، و«محدثين عظـام اور ان كـى علمـي كارنـامى» (المحـدثون العظـام وإنجـازاتهم العلميـة) للـشيخ تقـي الـدين المظاهري الندوي.

في موضوعات متنوعة

ولهـم مؤلفـات في موضـوعات متنوعـة مـن الحديث، فهـي: المعيـار القـرآني لحـديث الرسـول ﷺ للشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي، وبين الموضـوع والـضعيف مـن الأحاديـث للـشيخ محمـد عبيـد الله الأسـعدي بالعربيـة، وروض الريـاحين ترجمـة بـستان المحـدثين للـشيخ عبـد الـسميع الديوبنـدي، منتخـب أحاديـث (الأحاديـث المختارة) للشيخ محمـد يوسـف الكانـدهلوي، والمـسك الزكـي للـشيخ أشرف عـلي التهـانوي، ومنحـة الحبيـب في شرح ألفيـة الحـديث للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، ومستزاد الحقير على زاد الفقير للشيخ بدر عالم الميروتي، والاتحاف لمذهب الأحناف للشيخ العلامة محمد أنور شاه الكشميري، وقلائد الأزهار شرح كتاب الآثار للشيخ المفتي مهدي حسن الشاهجهانفوري، و علماء ديوبند وخدماتهم في علم الحديث للدكتور عبد الرحمن البرني.

* * *

الهوامش:

(٦) دار العلوم حركة فكرية للشيخ عبيد الله الأسعدي، ص: ١٨٤.

(٧) نفحة العنبر للشيخ محمد يوسف البنوري، ص: ١٨٤.

القيم التربوية في قصص الأطفال لعبد الله العيسري

(سلسلة «مغامرات محمود» أنموذجًا)

بقلم: **محمد شمشاد عالم القاسمي** (*)

توطئة

يُعتبر قصص الأطفال أهم أشكال أدب الأطفال الذي يشكل لونًا خاصًا من ألوان الأدب، ويُعنى بعالم الصغار وإعدادهم عدة للمستقبل، وقصص الأطفال تتزود بطاقات حافلة بالحركة والحيوية، وتمتلك عالمًا مليئًا بالأحلام والمتعة والأخيلة والتصورات، كما هي عالم واسع الآفاق للفضول، والولع بالاستكشاف والمغامرات، وترجع جذور قصص الأطفال إلى عصور عريقة وأزمان قديمة؛ بل إلى فجر التاريخ؛ لأن الآباء والأمهات كانوا يقصون على صبيانهم وأطفالهم قصصًا شعبية لتربيتهم تربية صالحة، وغرس القيم العليا في نفوسهم البريئة، كما كانوا يدغدغونهم بها لإمتاعهم وتنويمهم، وهذا مما لا يختلف فيه اثنان، ولكن ظهور قصص الأطفال في الأدب العربي بمفهومها الحديث قد تأخر حتى خرج هذا اللون القصصي إلى النور في الأدب العربي في العصر الحديث على أيدي أعضاء أول بعثة عربية مصرية إلى أوروبا في زمن محمد علي، وفي طليعتهم كان رفاعة الطهطاوي الذي يُعتبر أول من ترجم كتابًا قصصيًا من اللغة الإنكليزية إلى العربية، ثم برز عدد لا بأس به من الأدباء المصريين في هذا المجال، منهم محمد عثمان جلال، والشاعر الشهير أحمد شوقي، فأخذت دائرتها تمتد وتتسع يومًا فيومًا وانضم إليها محمد الهراوي إلى أن جاء رائد أدب الأطفال العربي كامل الكيلاني الذي شهد على يديه هذا اللون من الأدب تطورًا ملموسًا وازدهارًا كبيرًا، وكان الكيلاني يهدف مما يكتب من قصص الأطفال إلى تزويد الأطفال العرب بالمعارف والمعلومات والقيم الدينية والاجتماعية والوطنية.

وأما بالنسبة لدول الخليج العربي فقد عرفت قصص الأطفال بمفهومها العلمي الحديث في أوائل القرن العشرين، فبرز عديد من الكُتاب والكاتبات في مجال قصص الأطفال، منهم القاصة أسماء الزرعوني الإماراتية، وعبد القادرعقيل البحريني، ولطيفة مبارك السليطي القطرية، وعبد الكريم الجهيمان السعودي، والكاتبة أمل عبد الجبار الكويتية وغيرهم من المبدعين في هذا الحقل الأدبي، منهم الأستاذ عبد الله العيسري الذي يُعدّ من أبرز كُتاب قصص الأطفال والمواد الدراسية والتربوية

(*) باحث الدكتوراه، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي.

للأطفال في سلطنة عمان.

نظرة على عبد الله العيسري: النشأة والحياة والآثار

هو الكاتب والقاص عبد الله بن عامر العيسري الذي يُعد من أبرز الكُتاب العمانيين المعاصرين، من مواليد أوائل السبعينات من القرن العشرين تحديدًا عام ١٩٧٣م الموافق «١٣٩١هـ بولاية إبراء العمانية»[١]، وفتح عينيه في بيت كريم الأصل وعريق في العلم والثقافة والتقوى والجهد والاجتهاد، وفي بيئة قروية لأسرة دينية ومحافظة، يتراوح وضعها بين التمسك بتقاليد القرية والانفتاح على حياة المدنية، والجو الذي نشأ في ظله الأستاذ العيسري وقضى فيه أيام طفولته كان جوًا محافظًا، جو السكون الصافي ذي الطابع الديني، وفيه تفتحت كل حواسه على العالم، يتمتع بذكاء حاد ومعرفة وفضل.

وبدأ رحلته الدراسية والثقافية من قريته حتى أكمل مراحل دراسته الابتدائية والثانوية والبكالوريوس إلى أن «حصل على الماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة «لافبرا» بالمملكة المتحدة عام ٢٠٠٤م»[٢]، وتلقى من العلوم الدينية والشؤون الاجتماعية والثقافية الشيءَ الكثير حتى أصبح فيما بعد من رواد العمل الإسلامي في سلطنة عمان، وكان يحمل بين جنبيه حرصًا كثيرًا على تثقيف نفسه ثقافة إسلامية رفيعة في جميع مراحل حياته، فتمكن من توسيع آفاق ثقافته توسعًا شاملًا متعدد الأبعاد، كما تعكس لنا كتاباته جوانب كثيرة من تلك الأبعاد.

وقد لعب الأستاذ عبد الله العيسري أدوارًا رئيسة كثيرة على الصعيد الثقافي والتربوي بما فيها تأسيس المدارس والمراكز لنشر العلم والثقافة، وتقديم البرامج الدينية والثقافية والتدريبية والتربوية، فقام بإنشاء تسجيلات مشارق الأنوار التي تُعد أول تسجيلات إسلامية في سلطنة عمان، كما أصدر بمعية محمد بن سعيد المعمري مجلة «المعالم» عام ٢٠٠٠م من بريطانيا، وفي عام ٢٠٠٦م قام مع عمر بن حمد الوهيبي بتأسيس «مركز العيسري» المخصص والمتمحض لتنمية قدرات الطفل من لحظة الميلاد إلى سن ١٢ سنة، كما بدأ في نفس العام مشروع التدريب الإداري والقيادي للأطفال من خلال دورات «العباقرة الصغار».

ومن مجهوداته الثقافية خدمة التدريس، وتقديم البرامج والدورات التثقيفية، وإقامة الندوات الثقافية، فله منهج فريد وخبرات واسعة في المجال التثقيفي، فيطرح فيها الأفكار الإسلامية والمبادئ التربوية بأساليب تنسجم مع متطلبات العصر ومقتضياته، ويهدف منها إلى تثقيف النشء الجديد من الأبناء والبنات إضافة إلى إعدادهم لتولي نفس المسؤولية في الأيام القادمة للقيام بنفس الدور، كما يهدف الأستاذ العيسري منها إلى خلق طاقات علمية قادرة على إيجاد حوزات علمية تلعب دورًا رئيسًا وكبيرًا في نشر الثقافة الإسلامية من مصادرها الصحيحة النقية، وقد نالت برامجه ودوراته الثقافية والتربوية قبولًا واسعًا بين الأوساط العلمية، وإقبالًا كبيرًا من قِبَل مختلف الطبقات

والجهات، ونجاحًا ملموسًا في المجتمع العماني الجديد.

من إنتاجاته وآثاره

يُعتبر الأستاذ عبد الله العيسري في سلطنة عمان من رواد الكُتاب في مجال تأليف القصص والكتب للأطفال وإنتاج المواد المسموعة والمرئية المخصصة لهم، واستخدام الأسلوب القصصي في إيصال الأفكار والتوجيهات إليهم، ولقد بدأ رحلته الإبداعية منذ وقت مبكر، فقام إلى الآن بإنتاج عدد لا بأس به من القصص للأطفال، والكتب التربوية الموجهة للمربين، والمقررات الدراسية للأطفال وما إلى ذلك من المواد المرتبطة بهم، منها: أول مكتبة عربية للرضيع حتى ٣ سنوات باسم: «مكتبتي الأولى» الصادرة عن «مؤسسة سدرة لمصادر التعلم»، مجموعة العيسري، بمسقط، والتي تحتوي على ستة كتب مناسبة للطفل من لحظة الميلاد حتى ٧ سنوات، منها: «كتاب المهد» (أبني الحياة)، و«كتاب المعصم» (الأصابع تتعلم)، و«كتاب أنا منظم» للأطفال، إضافة إلى كونه موجهًا للمربين لتعليم طفل ما قبل المدرسة (٦ أشهر إلى ٧أعوام) مفاهيم إدارة الوقت، و«كتاب الماء»، و«ألعاب الماء»، وكتاب «الرأس أهم»، وكتاب «القارئ العبقري» للأطفال، المكوَّن من أربعة أجزاء، ومجموعة قصصية بعنوان: «القارئ العبقري: القصص المساندة»، وتحتوي على ١٥ قصة، وهي قصص متدرجة من الأسهل إلى الأصعب، وهي من إصدارات «مؤسسة العيسري لمصادر التعلم» بمسقط، وسلسلتان قصصيتان للأطفال، الصادرتان عن «مركز العيسري» مسقط، أولاهما: «حكايات الروضة» التي صدر منها أربع قصص، والثانية: «مغامرات محمود» التي صدر منها أربع قصص أيضًا إلى الآن، وما إلى ذلك من الكتب الدراسية للأطفال، والكتب لمربي الأطفال، والروايات التربوية(٣).

مفهوم قصص الأطفال وأهميتها

القصة تمثّل شكلًا راقيًا من أشكال الأدب، ولونًا رفيعًا من ألوانه، ونجد حضورها البارز في جميع الحضارات والثقافات والآداب القديمة والحديثة، و«قصة الأطفال وسيلة تربوية تعليمية محبَّبة، تهدف إلى غرس القيم والاتجاهات الإيجابية في نفوس جمهوره، وإشباع بعض احتياجاتهم النفسية، والإسهام في توسيع مداركهم وإثارة خيالاتهم، والاستجابة لميولهم في المغامرة والاستكشاف، ويُعد هذا الفن أبرز فنون أدب الأطفال، وأكثرها انتشارًا؛ إذ يستأثر بأعلى نسبة من النتاج الإبداعي الموجَّه للأطفال، ويحظى بالمنزلة الأولى لديهم قياسًا إلى الفنون الأدبية الأخرى»(٤). وأما مفهومها وتعريفها فهي «جنس أدبي نثري قصصي، موجَّه إلى الأطفال، ملائم لعالمه، يضمُّ حكاية شائقة، ليس لها موضوع محدَّد أو طول معيَّن، شخصياتها واضحة الأفعال، لغتها مستمدة من معجم الطفل، تطرح قيمة ضمنية، وتعبّر عن مغزى ذي أساس تربوي، مستمد من علم نفس الطفل»(٥).

وقصص الأطفال تحتل اليوم مكانة ذات أهمية

بالغة في الآداب العالمية بسبب أنها «شكل فني من أشكال الأدب الشائق، فيه جمال ومتعة... وهي لهذا من أحب ألوان الأدب إلى القراء، ومن أقربها إلى نفوسهم»[٦]، ويقول الدكتور عبد الفتاح أبو معال: «هي شكل فني من أشكال أدب الأطفال فيه مجال ومتعة وخيال، والقصة من أحب ألوان الأدب للأطفال ومن أقربها إلى نفوسهم، وهي عمل فني له قواعد وأصول ومقومات وعناصر فنية»[٧]، ويرى هادي نعمان الهيتي أن «القصة – اليوم – وسيلة من وسائل نشر الثقافات والمعارف والعلوم والفلسفات، وبسبب ما تنطوي عليه من جاذبية كانت من أشد ألوان الأدب تأثيرًا في النفوس، حتى وجدنا أن كثيرًا من القيم والمفاهيم والنظريات والفلسفات كانت القصة السبب الأول في ذيوعها وانتشارها قبل أي وسيلة أخرى»[٨].

وفي حقل تربية الأطفال الثقافية تبرز قصص الأطفال كإحدى أهم الوسائط التربوية والأساليب الثقافية؛ لأنها تتميز بميزات وتنفرد بخصائص قلما تُوجد في الوسائط التربوية والأساليب الثقافية الأخرى، كما أن لها مقدرة هائلة وساحرة على جذب انتباه الأطفال إليها، والتأثير في أفكارهم ومشاعرهم و«للقصة الطفلية خصائص وميزات نستطيع بواسطتها دخول عالم الطفولة، والاستجابة لطبيعتها؛ إذ تهيّئ عالمًا ساحرًا متنوعًا سحر الطفولة وتنوّع انفعالاتها؛ لذا تراهم يشغفون بها، يتوقون لسماعها، يندمجون بأحداثها، ويتفاعلون مع أبطالها، ومن هنا اكتسبت القصة تأثيرها الساحر على الأطفال»[٩].

دورها في تربية الأطفال

وتُعتبر القصة وسيلة تربوية هامة وأداة تثقيفية ناجحة، وتلعب دورًا هامًا في تنشئة الأطفال وتربيتهم الشاملة – عقائديًا وتعليميًا وفكريًا وترفيهيًا – فتقوم بإثراء خبراتهم وتنمية مهاراتهم، ومنحهم الاتجاهات الإيجابية، وتعريفهم بميراث هائل للثروات الأدبية، وتوفير فرص الترفيه لهم، وإشباع ميولهم للعب والمرح، و«هي تزوّدهم بالمعارف والمعلومات والحقائق عن الطبيعة والحياة، وتُطلعهم على البيئات الاجتماعية، كما أنها تُثري لغتهم وترقي بأساليبها، وتنمّي قدراتهم التعبيرية عن الأفكار والمشاعر والاحتياجات. وللقصة الطفلية دور فعال في النمو الانفعالي للطفل من خلال ضبط انفعالاته، وتخفيف التوتر عنه، والتنفيس عن رغباته المكبوتة، ومعالجة بعض المشكلات، والأمراض النفسية، وبعض العيوب اللفظية لديه. وهي أيضًا وسيلة جيدة لتكريس علاقات وأنماط سلوك إيجابية في حياة الطفل، وتعزيز الاتجاهات التي تنمّي قدراته على مواجهة المشكلات، كما تهدف إلى تحقيق أهداف ترويحية وترفيهية عدة، والاستجابة لميول الطفولة إلى اللعب والحركة، وتوفير قسط من المتعة والترفيه، وتبديد أجواء الروتين والرتابة»[١٠].

القيم التربوية كما تعكسها سلسلته القصصية «مغامرات محمود»

و«يُعدّ موضوع القيم من الموضوعات المهمة

التي شغلت اهتمام الكثير من الباحثين منذ فترات زمنية بعيدة حتى الوقت الحاضر، وتزداد أهمية دراسة القيم في العصر الحالي تمشيًا مع التطور التكنولوجي وعصر تفجر المعلومات الذي يتميز بأثره الواضح على الفرد بشكل خاص، والمجتمع بشكل عام»(١١)، وأما القيم التربوية فهي «كل صفة ذات أهمية لاعتبارات نفسية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية، وتتسم بسمة الجماعية في الاستخدام»(١٢)، وعند محمد صوالحة «هي مقياس أو معيار للحكم على الشيء باعتباره مرغوبًا فيه أو مرغوبًا عنه، وهي الأساس في تكوين الأهداف على اعتبار أن الهدف هو ما يطمح إليه الفرد ذاتيًا بصورة مباشرة أو غير مباشرة»(١٣)، بينما يرى بعض الباحثين «أنها أحكام عقلية مجردة، يصدرها الفرد على الأشياء أو المواقف أو الأشخاص لتحدد علاقته وطريقة تعامله مع موضوع القيمة كقيم النظافة والإيمان والربح والديمقراطية والفن»(١٤)، وما إلى ذلك من القيم المعرفية والثقافية والروحية والأخلاقية والاجتماعية وقيم تكامل الشخصية والقيم الصحية والوقائية.

وقد أتحفَنا الأستاذ العيسري بكثير من إبداعاته القصصية للأطفال، ولكن يركز الباحث عنايته على إبراز القيم التربوية المتوفرة في سلسلته القصصية: «مغامرات محمود» من خلال استعراضها وتحليلها، وقد صدرت منها أربع قصص إلى الآن، وقد جاء عنوان السلسلة يوحي بقيام محمود بأعمال خطيرة وبطولات حربية أو مخاطرات أخرى، ولكن الأمر ليس كذلك؛ بل يقوم محمود بمغامرات تربوية وتوجيهية وإصلاحية أو يتناول قضية من القضايا الاجتماعية المهمة ذات طابع واقعي مما يهدف إلى التطوير الذاتي للطفل كما يشير الكاتب بنفسه إلى ذلك، فيقول: «مغامرات محمود تُعنى أولًا وأخيرًا بالتطوير الذاتي للطفل من سن السابعة إلى الثانية عشرة، في كل مغامرة سيجد الطفل نفسه أمام قضية من قضايا الحياة التي تكثر تساؤلاته حولها. جاءت هذه المغامرات مزيجًا من الحقيقة الناصعة والخيال الخصب حتى يجد فيها الطفل المتعة والفائدة معًا»(١٥)، وفي الحقيقة تشكل «مغامرات محمود» دورات، وكل قصة منها دورة، فيقول الكاتب: «إنها دورات تدريبية موجهة للطلاب من الصف الأول إلى السادس، بطلها الطفل المغامر محمود، وتحوي أربع دورات: الدورة الأولى: مهارات البحث العلمي، والدورة الثانية: التاجر الصغير، والدورة الثالثة: إدارة الحديقة المنزلية، والدورة الرابعة: كيف تكون إيجابيًا؟، جميع هذه الدورات تتبع الاستراتيجيات الأربع: القصة واللعبة والسؤال والخيال»(١٦)، فلنتوقف عند قصة أولى عنوانها: «سر هجرة الطيور» هدفًا لإبراز القيم التربوية فيها.

هذه القصة قد كُتبت للأطفال من سن السابعة إلى الثانية عشرة، وتهدف إلى تنمية مهارات البحث العلمي لدى أطفال السن المذكور أعلاه، وتتحدث القصة عن هجرة الطيور أمثال الحمامة والهدهد ومغادرتها القرية إلى مكان آخر، وتتناول البحث عن سبب هجرتها الذي هو عدم اهتمام الإنسان بالطيور

بسبب انخراطهم في القنوات الفضائية والتكنولوجيا الحديثة، وتعالج هذه القصة موضوعًا دينيًا وأمرًا تربويًا ويمكن أن يكون مسلوكًا من قبل، ولكن بطريقة فيها من الجدة والابتكار قلّما سبق كاتب آخر إليها، فتطرّق القاص عبد الله العيسري إلى موضوع الامتثال بأمر الله سبحانه بالنظر إلى الطيور كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰفَّٰتٍ وَّيَقْبِضْنَ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمٰنُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيْرٌ﴾[١٧]، فهذا ما أراد الكاتب أن يثبته ويغرسه في نفوس الأطفال بما سرده من أحداث القصة.

وتتضمن نصوص القصة قيم المعارف الطبيعية من أمثال الحيوان والكون، كما عمل الكاتب على غرس القيم الدينية والاجتماعية في أذهان الأطفال ونفوس النشء الجديد، والتي تتجلى في مواضع مختلفة، منها نص القصة: «أجدادنا كانوا يسبّحون مع داود عليه السلام»[١٨]، ومنها ما نجده في تكرار الكاتب فقرة «السلام عليكم.. وعليكم السلام»، و«سبحان الله»، والتماس الدعاء، وهكذا ذكر اسم «الله» مرة بعد مرة، واسم النبي داود عليه السلام، وهكذا المشورة والاقتراح الذي قام به البطل محمود، وكذلك محاولة التفاهم التي نجح بها محمود وزملاؤه، وإعمال الفكرة، ومجيء ذكر الصلاة، وبيان مذاكرة الدروس، والتساؤل والسؤال وما إلى ذلك من المصطلحات والرموز والإيحاءات، كل ذلك من القيم التربوية التي تساهم مساهمة غير واعية في تكوين شخصية الطفل الشاملة وتنميتها فكريًا وثقافيًا ودينيًا وخلقيًا واجتماعيًا، وفي تطوير ملكة البحث العلمي لديه من خلال السؤال والتفكير إضافة إلى تزويده بالمتعة والخيال والتذوق بجمال الطبيعة القروية والصحراوية، ومما يجدر بنا أن نشير إليه هو أن الكاتب اختار لسرد أحداث القصة مكان القرية والصحراء حيث يسود جو السكون الصافي، فكلتاهما توحي بالأمن والسلام والراحة والاطمئنان وعدم القلق والتوتر الذي يكون الأطفال في أشد حاجة إليه في مراحلهم العمرية ورحلة بنائهم الشخصي، فمن هنا قد بلغت براعة الكاتب الفنية ذروتها.

القصة الثانية: «**لماذا يبكي حسن**؟»

هذه القصة قد تمّ إنتاجها أيضًا للأطفال من سن السابعة إلى الثانية عشرة، وتهدف إلى تشكيل اتجاه التجارة وتنميته لدى أطفال السن المذكور أعلاه، وتبتدئ القصة ببكاء الطفل اليتيم حسن، فيسأله بطل القصة محمود عن سبب بكائه، فيقول: ليست لدي لعبة بينما كل الأطفال لديهم ألعاب؛ ولكن لا يستطيع اشترائها بسبب كونه يتيمًا وأمه فقيرة، فيجيء محمود به إلى بيته، ليتعرف على ألعاب شعبية مصنوعة يدويًا من النخلة وغيرها ويتعلم صناعتها.

وتدور هذه القصة ذات الطابع الاجتماعي الواقعي حول الترغيب في التجارة والحث عليها، وقيمة الكسب باليد، والتي هي سنة الأنبياء – عليهم السلام –، والتي حث عليها رازق الخلق في كتابه العزيز: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[١٩]، وشوّق إليها

الرسول – عليه الصلاة والسلام – بأساليب شتى مرارًا وتكرارًا، فرُوي عنه: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم»[٢٠]، كما دعا بالبركة للتاجر الصدوق الأمين في تجارته، التي تتسبب بكسب الرزق وإزالة ما قد يعانيه المرء البائس الفقير من مرارة العيش وبأسائه، فمن هنا يرى الباحث أن الكاتب يريد أن يغرس في نفوس الأطفال حلًّا للواقع المرير الذي يعيشه المجتمع المسلم، المتمثل ببطالتهم وكسلهم وابتعادهم عن العمل والجد والاجتهاد والسعي لكسب الأموال، فحثهم على التجارة، فيلاحظ الباحث أن الكاتب يحاول أن يقوم بتربية الأطفال متزودين بقيم الجد والجهد في سبيل المعاش، وباتجاهات اقتصادية وقيمة اجتماعية.

ولاشك في أن هذه القصة هي قصيرة من ناحية الحجم والكم، ولكنها عريضة وواسعة جدًا من ناحية الكيف والمضمون، تحمل في طياتها قيمًا تثقيفية عديدة، واتجاهات وقيمًا تربوية مختلفة بشكل مباشر وغير ومباشر، وبشكل تلقائي وانسيابي، متسمة بعفوية، فمما يلاحظه الباحث في هذه القصة من القيم التربوية هو توجيه الأطفال وإرشادهم وصرف اتجاهم وميولهم إلى العمل بأيديهم، والتعفف عن السؤال والمسألة، حيث لم يعط البطل محمود الطفل اليتيم حسن لعبة حينما يراه باكيًا لها؛ بل يرشده إلى صنعها بنفسه، ويعلمه كيف يصنعها، فمن هنا يجد الباحث في هذه القصة انعكاسات الحديث المروي «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ فَقَالَ أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ قَالَ ائْتِنِي بِهِمَا قَالَ فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ قَالَ مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ قَالَ رَجُلٌ أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ وَقَالَ اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي به، فَأَتَاه به فَشَدَّ فِيْهِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُوْدًا بِيَدِه، ثُمَّ قَالَ لَه اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَقَالَ اشْتَرِ بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا فَقَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِيْ دَمٍ مُوجِعٍ»[٢١]، فنلاحظ في الحديث أن النبي – عليه الصلاة والسلام – لم يسد حاجة الرجل الأنصاري مباشرة؛ بل صرفه إلى العمل بيديه.

كما تتناول القصة أنه لا ينبغي اشتراء شيء ما مادام يمكن أن نصنعه بأنفسنا مما يوفّر النقود ويعُتبر توفير النقود رأس الاقتصاد، وكذلك نسمع فيها صدى قيمة اجتماعية وهي مساعدة اليتامى والمحتاجين المعدمين بأفضل ما هو لهم دون مساعدات مالية فقط، وهكذا ترمز القصة إلى قيمة تعليمية؛ حيث يعكسها نص القصة: «نحن في صف واحد في المدرسة»[٢٢]، فمن خلال ذلك يحث

الكاتب الأطفال على التعلم والدراسة، كما يبرز في القصة قيمة تربوية دينية تتمثل في نص القصة: «صديقنا حسن لديه فكرة، أتمنى أن يبقى باقي الأصدقاء بعد الصلاة»(٢٣)، فيرمز النص إلى تعويد الأطفال على الصلاة منذ أوائل أعمارهم، وكذلك نجد في القصة قيمة صحية من خلال الحفاظ على البيئة والأرض من التلويث؛ حيث يتحدث بطل القصة محمود عن أضرار البلاستيك للنباتات والأشجار، المتمثلة في حواره مع أصدقائه الصغار: «هل تعلمون يا أصدقاء أن البلاستيك لا يتحلل؟ أعني أنه إذا دُفن يبقى في الأرض يؤذي النباتات والأشجار»(٢٤)، إضافة إلى ذلك هناك اتجاه الاستفادة من الطبيعة مباشرة عندما يحث البطل محمود الطفل حسن على صنع الألعاب من النخلة، فإجمالًا تحفل القصة بالقيم التربوية الدينية والروحية والاجتماعية والصحية والدروس المفيدة التي ينبغي أن يتم تربية الأطفال وتدريبهم عليها منذ نعومة أظفارهم.

القصة الثالثة: «**زينة تبحث عن هواية**»

هذه القصة موجَّهة أيضًا للأطفال من سن السابعة إلى الثانية عشرة، وتشكل دورة ثالثة من سلسلة قصصية «مغامرات محمود»، وملخصها أن بطل القصة محمود كانت له أخت صغيرة، وهي طفلة كثيرة الحركة، فهي تمارس فعاليات وهوايات كثيرة مثل القفز وسكب العصير على الطعام وصب الماء، فتحرج أمها بذلك كلما زارهم زائر، بحثت الأم عن وسيلة تقنع بها ابنتها ولكنها لم تستطع؛ لأن ابنتها ما زالت دون مستوى الإدراك، والطفل محمود كان إمامًا لمسجد قريته، وذات يوم قرأ في الصلاة سورة عبس، ولأنه خاشع متدبر لما يقرأ، ألهمه الله أن يحوّل هواية أخته إلى شيء مفيد، فزرع حديقة منزلية وجعلها تصب الماء على الزرع صبًا.

هذه القصة تركّز على موضوع رئيس وهو «توجيه الطفل بطريقة غير مباشرة إلى خصيصة من خصائص القرآن الكريم، وهي أنه لا تنقضي عجائبه، وأن الإنسان كلما أمعن في تدبره فتح الله عليه من أسراره ما لم يحتسب»(٢٥)، فيريد الكاتب تثقيف الأطفال للأجيال كافة وخاصة الجيل في مرحلة الطفولة من سن السابعة إلى الثانية عشرة، وتدريبهم على التفكير والإمعان في القرآن الكريم.

وإلى جانب ذلك، تتحلى هذه القصة الوجيزة بكثير من اتجاهات وقيم تربوية من المعرفية والثقافية والروحية والدينية والخلقية والاجتماعية والترفيهية، فكل جملة من جملها وفقرة من فقرها تتجلى فيها قيمة تربوية، ففقرة القصة: «تفضلن يا أخواتي.. تفضلن، فلنبدأ باسم الله»(٢٦)، تبدو فيها تربية الطفل على بداية تناول الطعام باسم الله، التي هي من القيم الدينية لآداب تناول الطعام، كما توجد في المقطوعة: «لا بأس عليها.. إنها صغيرة»(٢٧) قيمة العفو والتسامح مع الطفل، التي تُعدّ من أهم القيم التربوية الخلقية، وكذلك نلاحظ في قوله: «أمر مضحك.. ولكن لا بد له من حل»(٢٨)، اتجاه الدعوة إلى التفكير في البحث عن حل مشكلة حلّت مما يُعد من القيم التربوية التثقيفية، كما تمثّل فقرة: «أسأل الله أن يهدينا إلى حل مناسب»(٢٩) قيمة تربية

الطفل على الاستعانة بالله وحده في كل أمر.

وكذلك يرى الباحث أن الكاتب يريد غرس قيمة العبادة في نفوس الأطفال من خلال ذكر الآيات القرآنية التي يتلوها البطل محمود إمامًا في الصلاة، وتتضمن فقرة: «لقد وجدت الحل.. وجدته، إنه في سورة عبس»(٣٠) تعويد الأطفال منذ الطفولة على البحث عن حل مشكلة في القرآن الكريم، ذلك من القيم التربوية والثقافة الدينية، في حين جاءت قيمة غرس حب الطبيعة في نفوس الأطفال من خلال ذكر فوائد الحديقة المنزلية المتوفرة في نص القصة: «هل تعرف فوائد الحديقة المنزلية يا سليمان؟»(٣١)، كما نجد معارف بيئية وفوائدها في الفقرات الآتية: «إن الحديقة المنزلية تلطف الجو الحار؛ لأنها تزيد الظل، وتزيد من كمية الأكسيجن في الهواء»(٣٢) مما يساهم في تزويد الأطفال بمعرفة القيم الصحية، وتربيتهم عليها، بينما تتسم فقرة: «وتوفر علينا النقود، فلا نضطر إلى شراء الخضراوات»(٣٣) بفائدة اقتصادية متمثلة بتوفير النقود، وذلك من قيم تدبير المنزل.

هذا، وتحتوي القصة على ذكر النباتات من الخضراوات والفواكه والأشجار التي ترتبط بالمعارف الطبيعية وهي بين مجموعة القيم المعرفية والثقافية، فملخص القول أن هذه القصة حافلة بكثير من القيم التربوية من المعرفية والثقافية والخلقية والدينية والروحية وما إلى ذلك مما يريد الكاتب أن يغرسه ويرسخه في نفوس الأطفال منذ الطفولة لينموا نموًا سليمًا ويتربوا تربية صالحة.

القصة الرابعة: «**قصة الحادث**»

هذه القصة مخصَّصة أيضًا للأطفال من سن السابعة إلى الثانية عشرة، وتشكل دورة رابعة من سلسلة قصصية «مغامرات محمود»، والقصة تتحدث عن حادث سير يعاني منه سالم فيجيء هدهد ليخبر به محمودًا فيزوره ويعوده محمود في المستشفى ولكن يجده حزينًا وخائفًا من مرضه، كما يبدي هدهد قلقه ومخاوفه من مرض سالم فيقول محمود لهما: علينا أن نكون صابرين متفائلين دون متشائمين حتى يبلّ سالم من مرضه ويُشفى منه ويعود إلى بيته سالمًا ومعافًا.

وتدورهذه القصة الموجَزة حول موضوع رئيس وهو «كيف تكون إيجابيًا؟»، فتتناوله من خلال الحوارات بين البطل محمود والطير هدهد والمريض سالم حيث ينصحهما محمود ألا نكون متشائمين؛ بل ينبغي لنا أن نكون متفائلين في كل مشكلة حلّت ومصيبة أصابت كما يربّينا القرآن الكريم عليه ويعلّمنا إيّاه قائلًا: ﴿وَلَا تَهِنُوْا وَلَا تَحْزَنُوْا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾(٣٤)، فمن خلال ذلك يريد الكاتب أن يربّي الأطفال على هذه القيمة الخلقية المهمة وقيمة الصبر كلما واجهوا مشكلة في حياتهم؛ لأن مع العسر يسرًا، وبعد كل كرب فرجًا.

وإلى جانب ذلك تتضمن معظم نصوص القصة وفِقَرها قيمة من قيم تربوية للأطفال، فمثلًا قول الطير هدهد: «إهي إهي.. مسكين سالم»(٣٥)، فيه قيمة التعاطف والتراحم مع المريض، كما نجد قيمة الصبر والتواصي به في قول البطل محمود:

«علينا أن نصبر يا هدهد إن الله مع الصابرين»[٣٦]، وقيمة دينية متمثلة في الدعاء من الله تعالى للمريض في قوله: «شفاه الله وعافاه»[٣٧]، وكذلك يعكس نص القصة: «لا بأس عليك.. طهور إن شاء الله»[٣٨] قيمة التفاؤل، كما يزوّد نص القصة: «يا الله.. يا رحيم.. أعِنّي يا الله»[٣٩] الأطفال بقيمة الاستعانة بالله تعالى في كل حادث إذا حدث، ومشكلة إذا أصابت، كما توجد انعكاسات قيمة تربوية خلقية في عيادة المريض حيث ماذا ينبغي أن يقال له وما لا ينبغي، متمثلة في قول البطل محمود للهدهد: «إشش إشش.. ما هكذا يقال للمريض»[٤٠] عندما يقول الهدهد للمريض سالم: «إهئ إهئ.. منظرك مخيف يا سالم»[٤١]، ويزوّد نص القصة: «حمدًا لله على سلامتك يا سالم»[٤٢] الأطفال بقيمة تربوية دينية، وهكذا نجد تكرار قيمة التفاؤل في نص القصة: «لا بأس عليك يا سالم، ستعود سليمًا معافًا بحول الله تعالى»[٤٣]، وتكرار قيمة الصبر والتمسك به في قول البطل محمود للمريض سالم: «أذكرك بقول الله تعالى: إن الله مع الصابرين»[٤٤]، كما يعثر الباحث على قيمة الرجاء والأمل وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله عزّ وجلّ في نص القصة: «لا تقنط من رحمة الله.. كن متفائلًا يا سالم»[٤٥]، إضافة إلى ذلك هناك توجد قيمة الرضى بقدر الله تعالى وقضائه في نصيحة البطل محمود لسالم: «في هذه الحالة عليك أن ترضى بقدر الله، وتتأقلم مع المرض»[٤٦]، إلى أن تنتهي القصة بقيمة حثِّ الأطفال على التعلم والدراسة وإن كانوا مصابين بالإعاقة أو مرض وداء مزمن حيث تتمثّل هذه القيمة في نص القصة: «كان الإمام السالمي (رحمه الله) ضرير البصر، ومع ذلك فقد ألّف عشرات الكتب»[٤٧] وما إلى ذلك من القيم التربوية الدينية والأخلاقية والاجتماعية المتوفرة في هذه القصة الشيقة.

خاتمة:

وبعد رحلة غير سريعة ودراسة متأنية وغير عابرة لقصص الأطفال للكاتب العماني عبد الله العيسري، توصّل الباحث إلى أن سلسلته القصصية للأطفال: «مغامرات محمود» تشتمل على مجموعة القيم التربوية من المعرفية والثقافية والاجتماعية والروحية والأخلاقية والدينية والترويحية والطبيعية والبيئية والصحية والوقائية وإن كان توافر هذه القيم متفاوتًا بين قصة وأخرى، مما يقوم بدور كبير ومهم في تربية الأطفال الدينية والثقافية والفكرية والاجتماعية والصحية، وتزويدهم بالأخلاق الكريمة والاتجاهات السليمة، وغرس حب القراءة والدراسة والمطالعة في نفوسهم وحثِّهم عليها، ومحبة الناس الآخرين ومساعدتهم منذ نعومة أظفارهم، كما تتضمن هذه القصص قيم الصبر والتمسك به والرحمة والرفق والتعاطف مع الآخرين مما ينبغي تربية النشء الجديد عليها منذ طفولتهم.

* * *

الهوامش:

(١) العيسري، عبد الله بن عامر، الطفل والقرآن، ط٣، ج١، مركز عبد الله العيسري، ص:٢٠٠، مسقط، سلطنة عمان، (١٤٣٠هـ).

(٢) نفس المصدر.

(٣) الاعتماد في ذلك على ما وفر الأستاذ العيسري للباحث مباشرة من المعلومات والمواد.
(٤) قاسم، عبد المجيد إبراهيم، مقالة: «قصص الأطفال عناصرها، أنواعها، وأبرز أعلامها»، مجلة «الحوار» الإلكترونية، الجمعة، ١١/يوليو، ٢٠١٤م.
(٥) الفيصل، سمر روحي، مقالة: «الشكل الفني لقصة الطفل في سوريا»، مجلة «الموقف الأدبي» (دمشق)، العدد:٢٠٨، (١٩٨٨م).
(٦) نجيب، أحمد، أدب الأطفال: علم وفن، ط١، دار الفكر العربي، ص: ٧٤ – ٧٥، القاهرة، (١٩٩١م).
(٧) أبو معال، الدكتور عبد الفتاح، أدب الأطفال: دراسة وتطبيق، ط٢، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص: ٣٨، عَمان، الأردن، (١٩٨٨م)
(٨) الهيتي، هادي نعمان، أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه، الهيئة المصرية العامة للكُتاب – القاهرة بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ص:١٣٢، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(٩) قاسم، عبد المجيد إبراهيم، مقالة: «قصص الأطفال عناصرها، أنواعها، وأبرز أعلامها»، مجلة «الحوار» الإلكترونية، الجمعة، ١١/يوليو، ٢٠١٤م.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) صوالحة، محمد، دراسة تحليلية لواقع القيم في عينة من قصص الأطفال، مجلة اتحاد الجامعات العربية للتربية وعلم النفس، ج١، ع٤، ص:١٥٨، كلية التربية، جامعة دمشق، (٢٠٠٣م).
(١٢) يوسف، عبد التواب، أطفالنا وعصر العلم والمعرفة، دار الفكر، ص: ١٦٢، دمشق، (٢٠٠٢م).
(١٣) صوالحة، دراسة تحليلية لواقع القيم في عينة من قصص الأطفال، ص:١٦٨.
(١٤) نفس المرجع، ص: ١٩.
(١٥) قام الكاتب القاص بثبتها في صفحة خلفية من كل قصة من قصص السلسلة، انظر مثلًا: «قصة الحادث» من إصدارات «مركز عبد الله العيسري»، مسقط، سلطنة عمان، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(١٦) قام الكاتب القاص أيضًا بثبتها في الصفحة الثانية من كل قصة من قصص السلسلة، انظر مثلًا: قصة «سر هجرة الطيور» من إصدارات «مركز عبد الله العيسري»، مسقط، سلطنة عمان، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(١٧) سورة الملك، رقم الآية: ١٩.
(١٨) العيسري، عبد الله بن عامر، سر هجرة الطيور، مركز عبد الله العيسري، ص: ٤، مسقط، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(١٩) سورة الجمعة، رقم الآية: ١٠.
(٢٠) سنن الترمذي، رقم الحديث: ١٣٥٨، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢١) سنن أبي داود، رقم الحديث: ١٦٤١، وابن ماجة، رقم الحديث: ٢١٩٨.
(٢٢) العيسري، عبد الله بن عامر، لماذا يبكي حسن؟، مركز عبد الله العيسري، ص: ٤، مسقط، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(٢٣) العيسري، لماذا يبكي حسن؟، ص: ٥.
(٢٤) العيسري، لماذا يبكي حسن؟، ص: ٦.
(٢٥) العيسري، عبد الله بن عامر، الطفل والقرآن، ط٣، ج١، مركز عبد الله العيسري، ص: ٩٢، مسقط، سلطنة عمان، (١٤٣٠هـ).
(٢٦) العيسري، عبد الله بن عامر، زينة تبحث عن هواية، مركز عبد الله العيسري، ص:٣، مسقط، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(٢٧) نفس المصدر.
(٢٨) نفس المصدر.
(٢٩) نفس المصدر.
(٣٠) نفس المصدر، ص:٤.
(٣١) نفس المصدر، ص:٥.
(٣٢) نفس المصدر، ص: ٦.
(٣٣) نفس المصدر.
(٣٤) سورة آل عمران، رقم الآية: ٣٩.
(٣٥) العيسري، عبد الله بن عامر، قصة الحادث، مركز عبد الله العيسري، ص:٤، مسقط، (تاريخ الطبع غير مكتوب).
(٣٦) نفس المصدر.
(٣٧) نفس المصدر.
(٣٨) نفس المصدر.
(٣٩) نفس المصدر.
(٤٠) نفس المصدر.
(٤١) نفس المصدر.
(٤٢) نفس المصدر، ص:٥.
(٤٣) نفس المصدر.
(٤٤) نفس المصدر، ص: ٦.
(٤٥) نفس المصدر.
(٤٦) نفس المصدر، ص: ٧.
(٤٧) نفس المصدر.

* * *

الشيخ وحيد الزمان الكيرانوي ودوره في إعداد القواميس

بقلم: **الدكتور/ محمد طارق القاسمي** (*)

يرجع تاريخ العلاقات الهندية – العربية إلى ماقبل الإسلام من خلال التجار العرب[1] فالمواني والسواحل الهندية الغربية والجنوبية كانت معروفة لدى تجار العرب قبل فجرالإسلام منذ قرون وهم كانوا يصدرون خيرات الهند و إنتاجاتها إلى اليمن وبلاد الشام[2] ولكنها ظلت في ارتباط أوثق و أوطد منذ فجر الإسلام، إذ وفد الصحابة البررة كدعاة إلى الهند ثم بدأ نطاقها يتسع على مرور العصور والأزمان.

إسهامات الهنود في اللغة العربية تبدأ على أيدي أولئك الذين كانوا من الأصل العربي وجاءوا إلى هذه البلاد في عهد الفتوح الإسلامية العربية واستوطنوها، وفي مقدمتهم أبو الحفص المحدث البصري وهو من أتباع التابعين ومات بأرض الهند في ١٦٠هـ-٧٧٦م[3] ثم من أولئك الذين ولدوا ونشأوا في الهند ونالوا سمعة بإسهاماتهم في الآداب العربية والعلوم الإسلامية قرنا بعد قرن عن طريق آثارهم ومؤلفاتهم. وما زال الهنود يعتنون اعتناء كبيرًا بالعلوم اللغوية أيضا مثل النحو والصرف والاشتقاق والبلاغة والإنشاء إلى جانب عدد من مجالات اللغة العربية فألفوا كتبا عديدة وتركوا آثارهم العلمية و الأدبية الوافرة فيها كما أسهم العلماء الهنود بقسط كبير في تسهيل الدراسة و تعلم اللغة العربية عن طريق إعداد قواميس ومعاجم ولاسيما بالنسبة للمواطنين الهنود من العربية إلى الأردية وبالعكس. وكان معلم اللغة العربية العبقري الشيخ وحيد الزمان الكيرانوي – رحمه الله– من بين هؤلاء الأعلام البارزين الذين خدموا اللغة العربية خلال القرن العشرين الميلادي ويعرف الشيخ في أوساط المثقفين الهنود و العرب بفضل مؤلفاته القيمة وتصنيفاته المفيدة لطلبة اللغة العربية وأساتيذها، كما ألف الشيخ عدة قواميس للمواطنين الهنود من العربية إلى الأردية وبالعكس. وسوف تكون مقالتي مركزة على تحليل قواميسه بعد إلقاء الضوء على نبذة من حياته.

حياة الشيخ الكيرانوي:

ولادة الشيخ ونشأته: ولد الأستاذ وحيدالزمان الكيرانوي في١٧ من فبراير عام ١٩٣٠ من الميلاد في بلدة «كيرانه» بمديرية «مظفر نجر» آنذاك وبمديرية «شاملي» حاليا على مسافة حوالي ١٠٠ كم

(*) جامعة لكناؤ، قسم اللغة العربية وآدابها.

من العاصمة الهندية نيودلهي، بولاية أترابراديش في الهند في أسرة علمية دينية يوجد بها سلسلة من العلماء، ووالده مولانا مسيح الزمان الكيرانوي كان عالما معروفا ببلده، متميزا بمكانته الفريدة في مجال العلوم الدينية في أعمال حياته اليومية وتمسكه الشديد بأصول الشريعة الإسلامية في حياته اليومية وكان حريصا على أن يرى هذا التمسك في حياة أبنائه وبناته. وكان الشيخ مسيح الزمان خريج دارالعلوم بديوبند ومن تلاميذ العلامة أنور شاه الكشميرى والعلامة شبير أحمد العثماني. واشتغل بعد التخرج في دارالعلوم داعيًا لمدة قليلة لدى جمعية حماية الإسلام في مدينة «أمرتسر»، ثم انتقل إلى مسقط رأسه «كيرانه» بعد وفاة أبيه.

وتعد «كيرانه» من البلدات التي قدمت تضحيات كبيرة في سبيل تحرير البلاد من سيطرة الحكم الاستعماري البريطاني، ويعود تاريخ هذه البلدة إلى زمن قديم، وتدل الشواهد التاريخية على أنه قد قام ببنائها وتعميرها إمبراطور من أسرة الباندو، وكان اسمه المهاراجه «كرن» فسميت هذه البلدة بِكيرانه، فأصبحت فيما بعد عاصمة ملوك تشوهان و راجفوت. ومن الوقائع التاريخية التي ترتبط بهذه البلدة أن القائد الإسلامي المعروف سيد سالار الغازي هجم على هذه البلدة مع عدد كبير من الغزاة، وما زالت آثار هذا الهجوم موجودة حتى الآن في هذه البلدة، وقد أنجبت عددا من شخصيات بارزة لها دور كبير في معركة تحرير هذه البلاد وفي مجال العلم والدعوة[٤].

سلسلة النسب: هو الشيخ وحيد الزمان بن المولوي مسيح الزمان بن القاضي المولوي محمد إسماعيل بن القاضي غلام حسين بن القاضي قلندر بخش حتى تصل سلسلة نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه، وأما والدته فكانت نجلة العالم المعروف عبد الحميد الجهنجهانوي وحفيدة مولانا قطب الدين صاحب «مظاهرالحق». هذا ومعنى ذلك أن في أسرته من قبل كل من الأم والأب سلسلة من علماء الدين.

تحصيل العلم: بعد حفظ القرآن الكريم على عادة الأسرة بأن تبدأ تعليم الطفل بالقرآن الكريم عيّن والده مدرسا لتعليم اللغة الأردية وعلم الرياضي وغير ذلك، وبعد تكميل حفظ القرآن الكريم نال التعاليم الابتدائية فقرأ بعض الكتب الفارسية كـ«كلستان» و «بوستان» من مؤلفات الشيخ سعدي الشيرازي، وقرأ بعض الكتب العربية الابتدائية من الصرف والنحو والفقه على الأستاذ محمدخالد ثم ذهب إلى مدينة حيدرآباد حيث تعلم اللغة العربية من عالم عربي دمشقي، ثم رجع الأستاذ الكيرانوي إلى بلدته «كيرانه» بعد تقسيم الهند، والتحق بالجامعة الإسلامية بديوبند عام ١٩٤٨ من الميلاد لينهل من مناهله العلمية الصافية: فقرأ علوم الحديث والفقه والتفسير وما عدا ذلك على كبار أساتذتها ومن بينهم الشيخ حسين أحمد المدني وتخرج فيها عام ١٩٥٢ من الميلاد. وكان رئيس

اتحاد الطلاب بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند أيام تحصيل العلم هناك.

علاقته بالأستاذ الدمشقي: شاء القدر أن يلتقي بأستاذ عربي دمشقي حيث سافر خاله من مدينة «حيدرآباد» إلى بلدة «كيرانه» وذلك أثناء دراسة الشيخ الكيرانوي الابتدائية للدراسات الإسلامية والعربية، فذهب خاله به إلى مدينة «حيدرآباد»؛ لأنه كان يشتغل بوظيفة رسمية هناك، والتقى هناك مع العلامة مامون الدمشقي في جامع نابلي فأصبح يزوره للاستفادة منه خاصة فيما يتعلق بإجادة اللغة العربية والتعبير بها نطقا وكتابة وكان لإقامته بمدينة حيدرآباد خلال الفترة ما بين ١٩٤٦ -١٩٤٨ من الميلاد. لم يتعرف الأستاذ الكيرانوي على اللغة العربية فحسب فكانت إقامته في هذه المدينة سعيدة جدا، وكان من سعادته أنه تعلم على العالم العربي العلامة مامون الدمشقي مما أحدث في حياته ثورةً للعلم والأدب.

أسفاره ووظائفه: سافر الشيخ الكيرانوي بعد التخرج في دارالعلوم بديوبند عام ١٩٥٢م إلى دلهي وعمل كسكرتير للشيخ حبيب الرحمان اللدهيانوي المعروف برئيس الأحرار، فكان يزور وزارة الخارجية الهندية بتوسط رئيس الأحرار عندما زار رئيس مجلس الشعب في مصر «أنور السادات» الهند عام ١٩٥٣ من الميلاد تم تعيينه مترجمًا له. أثناء اللقاء مع أنور السادات، ذكر الكيرانوي أهمية تبادل الثقافة والحضارة بين الهند ومصر، فوافقه أنور السادات على هذه الاقتراحات. بعد هذه المحادثة أرسل الشيخ عبد المنعم النمر إلى الهند، وقام الشيخ الكيرانوي بزيارة للمملكة العربية السعودية مع وفد ودي مكون من تسعة أشخاص بقيادة رئيس الأحرار الشيخ حبيب الرحمان، فلقي الوفد المسؤولين السعوديين والشيخ الكيرانوي كان مترجما لذلك الوفد. هذا إلى أنه قام بعدة زيارات لدول أوروبا وإفريقيا.

علاقته بالمجلات والجمعيات والمؤسسات: أسس عام ١٩٥٧ من الميلاد في ديوبند مؤسسة ثقافية بإسم «دارالفكر» و نسق تحت إدارتها تعليم العربية والإنجليزية وأصدر الشيخ عن الجامعة الإسلامية مجلة «دعوة الحق» العربية التي كانت تصدر أربع مرات في السنة واستمر نشرها بالمواظبة إلى أن أوقفها مسؤول دارالعلوم لمصلحة خاصة فعندما احتجبت مجلة «دعوة الحق» قام الأستاذ برئاسة مجلة «الداعي». وإلى جانب هذه المسؤوليات في الجامعة الإسلامية دارالعلوم أسس الشيخ خلال تدريسه فيها «النادي الأدبي» عام ١٩٦٧ من الميلاد لتمرين الطلاب على الخطابة والكتابة العربية وكان هو مشرفا عاما على هذا النادي الأدبي، والمسؤوليات الأخرى كانت على أكتاف الطلاب. وأقام مؤسسة أخرى بإسم «دارالمؤلفين» عام ١٩٨٨ من الميلاد. وأصدر لسان حال جمعية علماء الهند بالعربية باسم «الكفاح» التي ظلت تصدر طوال ١٥ عاما ثم احتجبت عام ١٩٨٠ من الميلاد. وقد تم تعيينه

أيضا عضوًا للجنة التنفيذية لجمعية علماء الهند. وله صلة قديمة مع هذه الجمعية فكان والده المولوي مسيح الزمان عضوا نشيطا لجمعية علماء الهند وحزب الكونجرس، ولعب دورا بارزا في حركة تحرير الهند ضد الاستعمار الإنجليزي كما ألقي القبض عليه فذهب إلى السجن. وعين الشيخ وحيدالزمان رئيسا لجمعية علماء الهند الملية عام ١٩٨٨ من الميلاد. وأصبح رئيسا لجمعية العلماء المركزية عام ١٩٩٢ من الميلاد وظل رئيسا لها حتى انتقل إلى ربه الكريم.

خدماته في التعليم والتربية: عين أستاذا للأدب العربي لمادتي التفسير والحديث بالجامعة الإسلامية دارالعلوم – ديوبند عام ١٩٦٣ من الميلاد وظل يخدم هذه الجامعة حتى عام ١٩٩٠ من الميلاد. وخلال هذه الفترة في عام ١٩٨٣ من الميلاد عينته الجامعة مديرا لمجلسها التعليمي وفي عام ١٩٨٥ من الميلاد رئيسا مساعدا لها. و استقال عام ١٩٨٧ من الميلاد من هذا المنصب.

وفاته: إن الطفل الذي يولد في بلدة صغيرة «كيرانه» يتعلم من بلدته إلى الجامعة الإسلامية دارالعلوم – ديوبند ويصبح أستاذا معروفا فيها ويقوم بزيارات للدول العربية والأوروبية والإفريقية وينتشر تلاميذه في شبه القارة الهندية وخارجها من البلاد العربية والإسلامية والأوروبية والإفريقية ويكتب عدة كتب ذات أثر بالغ يواجه في آواخر أيام من حياته داء السكري الشديد، وينتقل إلى ربه الأعلى في منتصف شهر إبريل عام ١٩٩٥ من الميلاد بعد ما عاش معظم مدة الشهور الأربعة الأخيرة من حياته في المستشفى لعلاج داء السكري الشديد الذي أدى إلى وفاته رحمه الله تعالى.

آثاره: عكف الشيخ على تأليف عدة كتب وقواميس ومن بين مصنفاتٍ مطبوعة وغير مطبوعة في كل من العربية والأردية، و نذكر هٰهنا مصنفاته المطبوعة الشهيرة في العربية ولاغير. وذلك فيما يلي:

القراءة الواضحة في ثلاثة أجزاء

نفحة الأدب

نظرة على جمعية علماء الهند

القاموس الجديد (من الأردية إلى العربية)

القاموس الجديد (من العربية إلى الأردية)

القاموس الاصطلاحي(من العربية إلى الأردية)

القاموس الاصطلاحي (من الأردية إلى العربية)

القاموس الوحيد (من العربية إلى الأردية)

نظرة عابرة على القواميس في الهند

يحسن بنا أن نتحدث عن تطور إعداد القواميس وجهود علماء الهنود بهذا الصدد. إن العلماء الهنود ألفوا عدة كتب باللغة العربية في علوم شتى كالتفسير والحديث والفقه والمنطق والأدب واللغة وأدب الأطفال، واعتنوا اعتناءً خاصًّا بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الهندية، فإنهم إذ عنوا بهذه الأعمال الجليلة كانوا طبعا محتاجين إلى معاجم عربية تغطي حاجاتهم اللغوية في ألسنتهم

المحلية، فقد أنجبت الهند منذ قديم معجميين كبارا، ومن بينهم رضي الدين الحسن بن محمد الصاغاني (ت٦٥٠هـ) مؤلف «العباب الزاخر واللباب الفاخر» ومحمد طاهر (ت ٩٨٦هـ) صاحب «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» والعلامة مرتضى الحسيني الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) مؤلف «تاج العروس من جواهر القاموس» والقاضي محمد أعلى التهانوي (ت١١٩١هـ) صاحب «كشاف اصطلاحات الفنون» وهناك طائفة من العلماء الذين ساهموا في الصناعة المعجمية العربية وهم معروفون على المستوى الدولي.

وإلى جانب هولاء المعجميين الكبار، لعب بعض المعجميين الهنود دورًا هاما في إعداد القواميس ومعاجم عربية – عربية، ومعاجم عربية – إنجليزية، ومعاجم عربية – أردية وغيرها من المعاجم العربية التي جاءت في حيز الوجود في عدة لغات محلية. وأما معاجم عربية – أردية، فبيان اللسان لزين العابدين سجاد الميرتهي، وقاموس القرآن لزين العابدين سجاد الميرتهي، و مصباح اللغات لعبد الحفيظ البلياوي و القاموس الجديد لوحيد الزمان الكيرانوي و القاموس الاصطلاحي والقاموس الوحيد لنفس المؤلف، ومن المعاجم من الأردية إلى العربية التي جاءت في حيز الوجود في شبه القارة الهندية هي: القاموس الجديد لوحيد الزمان الكيرانوي و القاموس الاصطلاحي لنفس المؤلف، وأركز دراستي الآن حسب موضوعي على تحليل القواميس للشيخ الكيرانوي وذلك بداية من القاموس الجديد من الأردية إلى العربية.

قواميس الشيخ الكيرانوي

لعب الشيخ الكيرانوي دورًا هامًّا في تسهيل الدراسة وتعلم اللغة العربية بالنسبة للمواطنين الهنود عن طريق إعداد القواميس من الأردية إلى العربية وبالعكس، وألف عدة قواميس في هذا المجال، ولا سيما أن الشيخ قد اعتنى اعتناء كبيرا بشأن الألفاظ الجديدة والمصطلحات الحديثة للناطقين باللغة الأردية ومواطني شبه القارة الهندية الذين يرغبون في الحصول على اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والسنة، فكان الشيخ يشعر في زمن تحصيل العلم بفراغ المعاجم التي تغطي هذه الحاجة، فأجاب الشيخ عن طريق إعداد هذه القواميس لحل المشاكل التي يواجهها الطلاب والأساتذة وجميع من يرغبون في التمكن من هذه اللغة وذلك فيما يلي:

القاموس الجديد (**من الأردية إلى العربية**)[٦]:

إن نسخة هذا القاموس التي بين يدي طبعت بديوبند، من أترابرديش عام١٤١٧هـ/١٩٩٧من الميلاد، مع المزيد من الألفاظ والمعاني الرائجة بالنسبة إلى النسخ التي طبعت من قبل، وتشتمل هذه النسخة على ١١٣٦ صفحة. والجدير بالذكر أن المؤلف الكيرانوي يعرف مشاكل طلبة اللغة العربية منذ بداية دراسته هذه اللغة، فمن ثم كان يقرأ كل صحيفة عربية أو مجلة عربية يحصل عليها حرفا

حرفا، ويرسم الخط تحت جميع الألفاظ الجديدة أو التعبيرات الحديثة وبعد تيقن تام من معانيها عن طريق تكرار قراءته في عدة أمكنة، يضبط على طريقته الخاصة وفقا للترتيب الألفبائي، حيث إنه يحصل عن طريق هذا المنهج على الألفاظ الحديثة العديدة التي تستخدم في الدول العربية في المجالات السياسية والاقتصادية والدراسية والعسكرية والرسمية وغير الرسمية والألفاظ المتعلقة بالمنظمات الدولية والمنظمات غير الرسمية.

كتب الشيخ الكيرانوي عن هذه الطبعة الجديدة التي تم إصدارها بعد ٢٦ عاما من الطبعة الأولى أن المصطلحات والتعبيرات تتغير وتتطور. فمن ثم بذل أقصى جهوده ليملأ هذا الفراغ بتقديم هذه الطبعة الجديدة لهذا القاموس بزيادة حوالي عشرين ألفا من الألفاظ الجديدة إلى جانب تعديلات في عدة أماكن ومراجعة الألفاظ المشتبهة[٧].

هذا إلى أنه كان يستفيد من المعاجم القديمة إلى جانب منهجه المذكور. وذلك لخدمة لغة الكتاب والسنة وتحصيل الوظائف لحل المشاكل الاقتصادية لطلبة اللغة العربية كما أن هناك عديدًا من الفرص في الدول العربية وسفاراتها بسبب تطوير وتعزيز العلاقات العربية – الهندية.

ويشير الأستاذ الكيرانوي في مقدمة الطبعة القديمة لهذا القاموس إلى أنه راجع المعاجم والقواميس والمؤلفات العربية والصحف والمجلات القيمة للحصول على الألفاظ والمصطلحات والتعبيرات لإعداد هذا القاموس[٨].

وقد أشار إلى ميزة هذا القاموس وانفراده عن المعاجم الأخرى البروفيسور زبير أحمد الفاروقي: «هذا قاموس قصير الحجم ألفه صاحبه الأستاذ وحيد الزمان الكيرانوي لطلبة المدارس والجامعات ليكون لهم مساعدا في فهم المصطلحات العصرية والمعاني الرائجة للكلمات القديمة في العصر الحاضر»[٩].

و هناك بعض الميزات لهذا القاموس منها ما يلي:

١- اعتنى الشيخ الكيرانوي في ترجمة التعبيرات بسياقها ومحل استعمالها بغض النظر عن الترجمة اللفظية.

٢- تناول جميع ألفاظ اللغة العربية والإنجليزية التي أصبحت جزءًا لايتجزأ من اللغة الأردية ولا بديل لها فيها تحت فهرس اللغة الأردية.

٣- لم يكتب مصدرا عربيا فقط؛ بل كتب جملة عربية تامة في صورة الفعل الماضي للحصول على المعنى المصدري في الأردية، وذلك لاستخدام اللفظ في الجملة صحيحا كما ذكر الصلات بجنب الأفعال؛ لأن المعاني تتغير بتغيير الصلات في هذا القاموس[١٠].

٤- وضع الشيخ جدولا للرموز التي استخدمها في إعداد هذا القاموس[١١].

القاموس الجديد (من العربية إلى الأردية)[١٢]:

إن نسخة هذا القاموس التي بين يدي طبعت بديوبند، من أترابرديش عام ٢٠١١م، مع المزيد من الألفاظ والمصطلحات الرائجة بالنسبة إلى النسخ التي طبعت من قبل، وتشتمل هذه النسخة على ٩٧٥ صفحة، إلى جانب تعديلات وتنقيحات. يحمل هذا المعجم الألفاظ العربية مع شرحها بالأردية، في العلوم المختلفة من الطب والهندسة والسياحة والصحافة وعلوم الطبيعة وغير ذلك. كما اعترف الشيخ الكيرانوي بأنه ألف هذا القاموس على أساس القاموس العصري من العربية إلى الإنجليزية؛ بل هو ملخص هذا القاموس العصري مع تعديلات لازمة واستفاد من المعجم الإنجليزي الأردي لعبد الحق في تعيين المصطلحات والكلمات ومدلولاتها المختلفة، وانتهل من المنجد في تحديد الصلات والصيغ الصرفية والاشتقاقات المختلفة للمادة[١٣]؛ ولكن لم يعتن ببيان القواعد المعجمية والصرفية في بداية الكتاب تمهيدا وتسهيلا كما هي عادة المعجميين في معاجمهم، إذ هم يكثرون الكلام في ذلك. هذا هو المنهج في القاموس الجديد له من الأردية إلى العربية. و وضع جدولا في هذا القاموس للرموز التي استخدمها فيه تيسيرا على القارئ.

رتب الشيخ المعجم الترتيب الألفبائي برد الكلمة إلى الأصل وتجريدها من الزوائد وقد اعتنى المعجم بالأسماء والمصطلحات اعتناء خاصا إلى جانب اعتنائه بالأفعال. ولا شك أنها محاولة يجب تقديرها حيث يستفيد منه الطلاب والمترجمون الناطقون بالأردية.

القاموس الاصطلاحي(من العربية إلى الأردية)[١٤]:
ألف الشيخ الكيرانوي هذا القاموس في صورة معجم صغير تشتمل على ٥٢٧ صفحة، تناول فيه المصطلحات الجديدة التي طالما تستخدم في حياة الإنسان العامة بالإضافة إلى الكلمات التي تستخدم في الصحافة المعاصرة والكتب الأدبية العربية وترجم معانيها إلى اللغة الأردية والكتب الأدبية. وقد رتب المعجم الترتيب الألفبائي. ومن ميزات الكتاب أنه اعتنى اعتناء كبيرا بتشكيل كل حرف من حروف الكلمة.

والجدير بالذكر أنه أعاد كثيرا من المصطلحات التي جاءت في القاموس الجديد لنفس المؤلف، ولكن لهذا القاموس اختصاص بالمصطلحات العربية التي تستخدم في الدول العربية ومن بينها المصطلحات السياسية والاقتصادية والرسمية وغير الرسمية وغير ذلك.

القاموس الاصطلاحي (من الأردية إلى العربية)[١٥]:
بعد إصدار القاموس الإصطلاحي من العربية إلى الأردية تحقيقا لرغبة الطلبة والأساتيذ بإصدار قاموس من الأردية إلى العربية على المنهج السابق[١٦]، ألف الشيخ الكيرانوي هذا القاموس المشتمل على ٤٣٠ صفحة من الأردية إلى العربية تناول فيه المصطلحات الجديدة التي تستخدم كثيرا في حياة الإنسان العامة والعلمية بالإضافة إلى

الكلـمات التـي تـستخدم في الـصحافة المعـاصرة، والكتب الأدبية الأردية وترجم معانيها إلى العربية الحديثة الفصحى لا العربية المحلية أو الدارجة. أخذ المؤلف كلمة أردية في الجانب الأيمن ثم جاء بكلمة عربية إزاءها تشرح معنى الكلمة الأردية مع بيان صيغها المختلفة من الماضي والمضارع والمصدر وللمؤلف يد طولى في ذكر الصلات خلال بيان معنى الكلمة. أما الأسماء فإنه لم يكتف بذكر معانيها فحسب؛ بل ذكر المفرد ثم الجمع وإن كان للكلمة عدة جموع اعتنى بذكرها.

وبالجملة هذا القاموس محاولة مشكورة مفيدة للناطقين باللغة الأردية ولا يزال يستفيد منه الطلبة والأساتذة والمترجمون في شبه القارة الهندية في المدارس الإسلامية والجامعات العصرية والسفارات العربية في شبه القارة الهندية.

القاموس الوحيد (من العربية إلى الأردية)[١٧]:

هذا قاموس ضخم مشتمل على مجلدين حوالي ١٩٠٠صفحة من العربية إلى الأردية. ألّف الشيخ الكيرانوي هذا المعجم في أواخر الأيام من حياته على أساس المعجم الوسيط إلى جانب الاستفادة من المعاجم المتداولة، ولكن لم يتم إصداره في حياته حيث تم إصداره على يد شقيقه مولانا عميد الزمان الكيرانوي[١٨] مع مقدمة شاملة من قبله تحتوي على أهمية اللغة ومعناها اصطلاحا ولغة، ونقل رأي صاحب القاموس المحيط مجدالدين الفيروزآبادي وآراء عدد من كبار المعجميين، وألقى الضوء على اللغة العربية واللغات السامية، كما أنه أشار إلى تفوق قريش اقتصاديا وسياسيا، وأحاط بأهم المعاجم بذكر معلومات بشأنها ككتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، و التهذيب لأبي المنصور محمد بن أحمد الأزهري، و البارع لأبي علي إسماعيل القالي، و المحكم لأبي الحسن علي بن إسماعيل، و الجمهرة لأبي بكر بن محمد الحسن بن دريد الأزدي، و تاج اللغة وصحاح العربية لأبي النصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، و لسان العرب لابن منظور، و القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي، و تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي، و أساس البلاغة لأبي القاسم محمود الزمخشري، و مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، و المصباح المنير لأبي العباس أحمد بن محمد، و محيط المحيط لبطرس البستاني، و أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد للشيخ سعيد الشرتوني، و المنجد للويس المعلوف اليسوعي، و المعجم الوسيط تحت إشراف مجمع اللغة العربية بمصر، وأخيرا صاحب هذا القاموس الوحيد الشيخ وحيد الزمان الكيرانوي بالبسط[١٩].

ومن أهم ميزات هذا القاموس أنه يشتمل على مئة ألف لفظ، و هو أحسن من المنجد (المعجم العربي المعروف) من حيث خلوه من الأخطاء بالنسبة للمنجد، ويشتمل على جميع المصطلحات المتداولة اللازمة.

ومن مميزات هذا القاموس أنه يوضح الكتاب

والسنة والمصطلحات للعلوم الإسلامية، و يشرح مفاهيمها الخاصة، ويستدل صاحبه بالكتاب والسنة حيث استفاد المؤلف الشيخ الكيرانوي من المعجم الوسيط والقاموس العصري من العربية إلى الإنجليزية والقاموس الاقتصادي والقاموس الطبي وقاموس القرآن ولغات القرآن، و ألف هذا القاموس على الترتيب الألفبائي وقدم الأفعال على الأسماء والفعل المجرد على المزيد والمعنى الحسي على المعنى العقلي، والمعنى الحقيقي على المعنى المجازي، والفعل اللازم على الفعل المتعدي في ترتيب الأفعال.

وبالجملة إنه كان أديبا كاتبا، خطيبا خطاطا، مهندسا إداريا وعلى رأس هذه الصفات كان عالما لغويا حالفته العبقرية في هذا المجال، قد احتل مكانة مرموقة بين الطلبة والمدرسين والمترجمين معا وإسهاماته في إعداد القواميس لا تنسى أبدا.

* * *

المراجع والمصادر:

(١) راجع للتفصيل، مساهمة دارالعلوم بديوبند في الأدب العربي، البروفيسور زبير أحمد الفاروقي، دار الفاروق نيو دلهي، الطبعة الأولى١٩٩٠، ص: ٧.

(٢) الصحافة العربية في الهند: نشأتها وتطورها، أيوب تاج الدين الندوي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م دارالهجرة – جامو، ص :٨ .

(٣) راجع للتفصيل سبحة المرجان في آثار هندستان للغلام على آزاد البلغرامي، ج١ ص :٦٢-٦٣.

(٤) وه كوه كن كي بات، للأستاذ نور عالم الأميني (تلميذ الشيخ الكيرانوي)، الطبعة الثالثة، ديسمبر ٢٠٠٠، ص: ٢٣٧.

(٥) المستدرك على تتمة الأعلام للزركلي(الأول والثاني)، محمد خسير رمضان يوسف، دار إبن حزم ، بيروت،الطبعة الاولي،٢٠٠٢، ص١١٦).

(٦) تم إصدار هذا القاموس الجديد من الأردية إلى العربية مع زيادة نحو عشرين ألفا من الألفاظ والمصطلاحات المفيدة للشيخ الكيرانوي من «كتب خانه حسينيه» بديوبند، أترابرديش، عام ١٩٩٧.

(٧) القاموس الجديد من الأردية إلى العربية للشيخ الكيرانوي، كتب خانه حسينيه، ديوبند، أترابرديش، ١٩٩٧، ص:٥.

(٨) نفس المصدر، ص:٨ .

(٩) مساهمة دارالعلوم بديوبند في الأدب العربي، البروفيسور زبير أحمد الفاروقي، دار الفاروق نيو دلهي، الطبعة الأولى١٩٩٠، ص: ١٦٨.

(١٠) راجع للتفصيل، القاموس الجديد من الأردية إلى العربية، ص: ٩-١٠.

(١١) نفس المصدر، ص: ١١.

(١٢) تم إصدار هذا القاموس الجديد من العربية إلى الأردية مع زيادة نحو خمسة عشر ألفا من الألفاظ والمصطلاحات المفيدة للشيخ الكيرانوي من «كتب خانه حسينيه» بديوبند، أترابرديش، عام ٢٠١١م.

(١٣) نفس المصدر، ص٥ .

(١٤) تم إصدار هذا القاموس الاصطلاحي من العربية إلى الأردية للشيخ الكيرانوي، دار المؤلفين بديوبند، أترابرديش، عام ١٩٨٧م.

(١٥) تم إصدار هذا القاموس الاصطلاحي من الأردية إلى العربية للشيخ الكيرانوي، دار المؤلفين بديوبند، أترابرديش، عام ٢٠٠٧م.

(١٦) نفس المصدر، ص: ٣.

(١٧) تم إصدار هذا القاموس الوحيد من العربية إلى الأردية للشيخ الكيرانوي في المجلدين من «كتب خانه حسينيه» بديوبند أترابرديش، عام ٢٠٠٣.

(١٨) هو الشقيق الأوسط لمعلم العربية الشيخ وحيد الزمان الكيرانوي، وتوفي يوم الجمعة ٢٠١٠م الموافق ١٤ شوال ١٤٣١هـ، وكان موظفا في المكتب الإعلامي لسفارة ا لمملكة العربية السعودية لدى نيودلهي.

(١٩) راجع للتفصيل القاموس الوحيد، ص:٥-١٠١.

* * *

أبو الحَسَنات عبد الحي الفَرَنْجِي المَحَلّي وأعماله في الحديث النبوي والفِقه الحنفي

بقلم: **الأستاذ أبو الكلام القاسمي** (*)

الهند من بلاد الله السعيدة التي دخلَتْ فيها اللغة العربية قبل مجيء الإسلام كما هَبَّتْ عليها نَفْحةٌ من نَفَحات الإسلام في فجر تاريخ الإسلام، وأدركَتْها العنايةُ الإلهيّةُ في القرن الأول من الهجرة، فلم تَزَل مَحَطّ رجال المسلمين من الغُزاةِ والفاتحين، والعلماء، والصالحين حتى أشرَقَتْ أرضُها بنور الإسلام، وتَنَوّرَتْ رُبُوعُها بِخِيَرة العالم الإسلامِي، وأنْجَبتْ رجالًا، هم مَحَاسِنُ الدنيا و نُجومُ الأرض، ومَفَاخِرُ المسلمين جميعا، فَضْلًا عن مسلمِي الهند، وإن مساهماتهم في مجال العلوم الإسلاميّة واللغة العربية تَفُوقُ على جميع الشُّعُوبِ غيرِ العربيّةِ في العالم. وبعض أولئك العلماء أبْدَعوا بمعارفهم العلميّة والأدبيّة، ونالوا بذلك تقديرَ المؤرخِين والعلماء المشهورين في العالم فمنهم العلامة عبدالحي الفرنجي المحلي رحمه الله.

هو فَخْرُ المتأخِرين، ونادِرَةُ المحقِّقين المُصَنّفين، والمحدثُ، الفقيهُ، الأصولي، المنطقِي، المتكلم، المؤرخُ، البَحّاثَة، النَقّادَة، الإمام الشيخ أبوالحسنات محمد عبد الحي بن العلامة المحقِّق الإمام الشيخ محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي[1]، وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه[2].

وُلد الشيخ عبد الحي ببلدة بَانْدَا في أترابراديش يوم الثُلاثاء ٢٦ من ذِي القَعْدَة سنة ١٢٤٦هـ، وبدأ حفظ القرآن الكريم حين بلغ الخمس سنين، وفرغ من حفظه وهو ابن عشر سنين، وقد مَنَحَه اللهُ منذ نشأته قُوّةَ الحِفْظِ الوَاعِية حيث قال الإمام عن نفسه: رُزِقْتُ قُوّةَ الحفظ من زَمَن الصبا، حتى إني أحفظ جميعَ وقائع قراءة الفاتحة، حين كان عمري خمسَ سنين؛ بل أحفظ ضربةً وقعَتْ بي حين كان عمري ثلاث سنين فقط[3]. وقرأ بعضَ الكتبِ الفارسيةِ والإنشاءِ والخطِّ وغير ذلك على والده العَطُوفِ خلال حفظ القرآن الكريم كما قرأ على والده الذي كان مدرسًا بمدرسة الحاج إمام بخش في «جونفور» جميع الكتب المدرسية في الفنون المختلفة مثل: الصَرف، والنَحو، والمعاني، والبيان، والمنطق، والحِكْمَة، والطبّ، والفقه، وأصول الفقه، وعلم الكلام، والحديث وأصول الحديث، والتفسير وأصول التفسير وما إلى ذلك، وقد أكمل الشيخ هذه الفنون حين كان عمره سبع عشرة سنةً، وقرأ كتبا عديدةً في العلوم الرياضِيّة على خاله وأستاذه

(*) محاضر ضيف وباحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها الجامعة العالية، بكولكتا، الهند.

مولانا محمد نعمت الله كما تعلم الحساب من أرْشَد تلامذة والده المولوي محمد خادم الحسين المظفر بوري العظيم آبادي.

وقد ألقَى اللهُ في قلبه من مُسْتَهَل شبابه مَحَبَةَ التدريسِ والتأليفِ، فلم يقرأ كتابًا إلا درّسه بعد قراءته، فحصل له من ذلك التَمَكّن من العلوم و المَلَكَة في الفَهْم والعلم حتى كان يَقْرأ الكتبَ التي لم يقرأها على أستاذ ككتاب «شرح الإشارات» للطوسي، و«قانون الطب»، و «علم العروض» وغيرها.

وذاتَ مَرّةٍ رأى في المنام المحقّق نصيرَ الدين الطُوسي مؤلف «التذكرة» و «التجريد» و «تحرير أقليدس» وغيرها وسأله عن أشياء فأثنى عليه الطوسي باشتغاله بالعلوم وأظهرَ الفَرَحَ والسرورَ كأنه كان يُبشّره بحصولِ الكمالِ في العلومِ المختلفةِ ثم ألقى الله في قلبه محبة التدريس والتصنيف[٤].

ويقول الباحث الكبير الشيخ عبدُ الفَتّاح أبوغُدّة: «ولقد آتاهُ اللهُ تعالى ذوقا مرهفا، وحسّا علميا نَقِيّا، ودِقّةً نادرةً في الفهم، وقوّةً بَالغةً في الحفظِ، وقدرةً عجيبةً على التأليف بأسرعِ وقتٍ وأنصَعِ أسلوبٍ، حتى إنك لا تكاد تَلْمَح في كلامه مَسْحةَ العُجْمَة وهو هندي الدار والمَولِد واللغة، ولا يمكن أن تشُكّ مرةً واحدةً في ذوقه فيما يكتُب أو ينقل أو يناقش .... ويتجلّى لك من أسلوبه الالتزامُ بالأدب، وتحكيمُ العلم في ميدان المناقشة، لا السَفْسَطَة والإقذاع»[٥].

و يقول العلامة عبد الحي الحسني في «نُزْهَة الخَواطِرِ وبَهْجَة المَسامع واالنَواظر»: «كان الإمام خطيبا مِصْقعا، مُتبَحّرا في العلوم معقولًا ومنقولًا، مُطّلِعا على دقائق الشَرعِ وغوامضه، تَبَحَّرَ في العلوم، وتَحَرّى في نقل الأحكام، وانفردَ في الهند بعلم الفتوى، وكان له في الأصول والفروع قوةٌ كاملةٌ، وقدرةٌ شاملةٌ، وفضيلةٌ تامةٌ وإحاطةٌ عامةٌ، وفي حسن التعليم صِناعةٌ لا يقدر عليها غيره، وكان إذا اجتمع بأهل العلم وجَرَتِ المباحثةُ في فنٍ من فنونِ العلم لا يتكلم قط؛ بل ينظر إليهم ساكتا، ثم يتكلم بكلامٍ يقبله الجميعُ ويُقنِع به كلَ سامعٍ، والحاصل أنه كان من عجائبِ الزمن ومن محاسِنِ الهند، وكان الثناءُ عليه كلمة إجماعٍ والاعترافُ بفضلِهِ ليس فيه نزاع»[٦].

وقد خلّف لنا الإمام عبد الحي الفرنجي المحلي كتبًا عديدةً في فنونٍ مختلفةٍ. وهذه المؤلفات القَيِّمَة تدُلُّ على عُلُوّ كعبه في العلوم والمعارف، فمن مؤلفاته المهمة في الحديث:

الآثارُ المرفوعةُ في الأخبارِ الموضوعةِ

فرغ الإمام عبد الحيّ من تأليف هذا الكتاب في رجب سنة ١٣٠٣ للهجرة، وكان يريد تأليف كتابٍ شاملٍ في الأحاديث الموضوعة ولكن أوجَزَه ببعض الأسباب والعِلَل المجهولة على الأحاديث المتعلقة بالصلاة فقط.

وذكر الإمام في سبب تأليف هذا الكتاب أنه جَرَتْ بينه وبين بعضِ أعِزّائه مناقشةٌ ومناظرةٌ لطيفةٌ حول فضائل يوم عاشوراء في ١٣٠٣ للهجرة، ثم سأله بعض الناس عن كمية وكيفية صلاة يوم عاشوراء وما كُتِبَ عليها من ثوابٍ وجزاءٍ، فكان جوابُ الإمام عبد الحيّ أنه لاتُوجدُ في أية روايةٍ

محكمةٍ موثوقةٍ كميّةُ الصلاةِ المُعيّنة أو كيفيّتها في هذا اليوم، وكل ما يُذْكَر إنما هو شائعاتٌ وضعيةٌ ليست لها حقيقةٌ واضحةٌ في أصول الدين الإسلامي(٧)، وفي نفس الحين أراد الإمام أن يؤلّف رسالةً خاصةً في الأحاديث الموضوعة، فألّف هذا الكتاب واقتصر على الأحاديث الموضوعة في صلوات أيام السنة ولياليها موضحًا اختلافها ووضعها ليتنبّه به العلماءُ والدارسونَ ويستفيدوا منه استفادةً تامةً. وطبع هذا الكتاب في عدّة بلاد أخرى غير الهند منها: باكستان وبيروت كما حقّق وعلّق عليه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، وطبع بدار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٥ للهجرة/ ١٩٨٤م.

ويستهلّ المؤلف هذا الكتاب كعادته في بقيّةِ مؤلفاته بالحمد والثناء في أسلوب مؤثّرٍ رَصينٍ ثم يذكر سبب تأليفه ثم يتحدث الإمام عن الأحاديث التي يظن أنها موضوعة في بعض كتب أئمة الصوفية مثل الإمام الغزالي والشيخ عبد القادر الجيلاني وغيرهما ثم يذكر أقسام الوضّاعين وأنواعهم موجزًا والتي يبلغ عددها إلى سبعة، ثم يستعرض أغراض الوضّاعين ودوافع وضعهم فيوزّع هذه الأسباب في ثمانية أقسام مع تحليلٍ وتوضيحٍ شاملٍ ثم يبيّن الصلوات المختلفة في أيام السنة مثل صلاة ليلة البراءة والقضاء العمري في رمضان وصلاة ليلة عيد الفطر وصلاة ليلة النَحْر وصلاة عاشوراء مع ذكر الأدعية المخصوصة وأقوال العلماء حول هذه الصلوات وما إلى ذلك.

ويكشف العلامة عبد الحيّ في هذا الكتاب ثمانية أقسام من الوضّاعين ثم يعرض كل قسم منها منفصلًا بالشرح الوافر على نحو ما يلي:

النوع الأول قوم من الزنادقة وهم يقصدون إفساد الشريعة وإيقاع الفساد في الأمة. وقد شبّههم اللكنوي باليهود والنصارى الذين أحرقوا الكتب الإلهية، والنوع الثاني هم قوم يقصدون وضع الأحاديث زهوًا وتأييدًا لمذاهبهم. وقد حلّل ذلك المؤلف بتحليلٍ بسيطٍ وأمثلةٍ وافيةٍ. والنوع الثالث قوم يضعون الأحاديث ترهيبًا وترغيبًا ليحثّوا بها الناس على الخير والصواب وقد شرحهم بأمثلة كثيرة. والنوع الرابع قوم استجازوا وضع الأسانيد لكل كلام حسن ظنًا منهم أن الحسن كله أمر شرعيٌ، ولا حاجة لنسبته إلى الرّسول ﷺ. والنوع الخامس قوم حملهم على الوضع غرض من أغراض الدنيا كالتَقَرّب إلى السلطان أو تحصيل الثروة أو نَيْل الشهرة والصيت وغيرها. والنوع السادس قوم حملهم على الوضع التّعصُّب الديني والتجَمّد التقليدي. والنوع السابع قوم حملهم على الوضع عشق الخلق وجنونه الذي أعماهم وأصمّهم تمامًا، ومن أمثالهم قوم وضعوا الأحاديث عن أهل البيت. والنوع الثامن قوم وضعوا الأحاديث بهدف الإعجاب والإغراب وهذا النوع يحوي كثيرًا من أقسام القصّاصين والوُعاظ(٨).

الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة

هذا كتاب ألّفه العلامة عبد الحيّ في ذي الحجة من سنة ١٢٩١ للهجرة، وقد نشر عدّة مرات في الهند، كما طبع أولًا بالمطبع المصطفائي بلكناؤ سنة ١٢٩٩ للهجرة، ثم حقّق وعلّق عليه الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة، ونشر بمكتب المطبوعات

الإسلامية بحلب سنة ١٣٨٦ للهجرة، وقد أضاف هـذا التحقيـق والتعليـق أهميـة الكتـاب أضـعافا مضاعفة.

تناول فيه العلامة الأجوبة عن الأسئلة العشرة التي سأله عنها أحد كبار العلماء من معاصريه، وهو العلامة الجليل الأستاذ محمد حسين اللاهوري الذي أرسل هذه الأسئلة العشرة من لاهور إلى حيدرآباد – الدكن – حين كان الإمام اللكنوي مقيما بها، فألّف الإمام هذا الكتاب النافع جوابا عن تلك الأسئلة الشاملة الجامعة، ويُعدّ هذا الكتاب في طليعة تآليفه النادرة المثال، إذ سدّ فراغا في علوم الحديث لم يملأه أحد قبله كما قال الباحث الكبير الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة هذا الكتاب[٩].

وأضاف الباحث الكبير الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قائلا: «تضمّن هذا الكتاب أبحاثا جامعة محررة، لم ينهض للكتابة فيها غير الإمام اللكنوي رحمه الله تعالى فيما علمتُ»[١٠].

الرفع والتكميل في الجرح والتعديل

ألّف العلامة عبد الحيّ «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل» وتناول فيه الجهات المختلفة في أصول الحديث، وقد ألفه العلامة في ذي القعدة سنة ١٣٠١ للهجرة، وتم الطبع في نفس السنة من مطبعة أنوار محمدي في لكناؤ[١١] وطبع عدة مرات في الهند وخارجها من البلدان العربية، وطبع في حلب سنة ١٣٣٨هـ/١٩٦٣م ثم في بيروت سنة ١٩٦٨م ثم القاهرة سنة ١٩٧٣م كما طبع أخيرًا سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م من دارالسلام في القاهرة وجاءت الطبعة الثامنة في بيروت ٢٠٠٤م. وحقّق وعلّق عليه الباحث السوري الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

استهل المؤلف المقدمة ببيان سبب تأليف هذا الكتاب حيث قال: إنه رأى كثيرا من علماء عصره يخوضون في مسائل الجرح والتعديل مع عدم معرفة فن الجرح والتعديل معرفة تامة حتى أنهم لا يعلمون مصطلحات أئمة الجرح والتعديل ويرون أن الاستفادة من كتب الجرح والتعديل القيّمة – مثل «تهذيب الكمال» للحافظ المزي و«ميزان الاعتدال» للعلامة الذهبي و«تهذيب التهذيب» و«تقريب التهذيب» و «المغني» و«كامل» و«لسان الميزان» وغيرها من الكتب – أمر يسير مع جهلهم بمصطلحات أئمة الجرح والتعديل، وعدم فرقهم بين الجرح المبهم والجرح غير المبهم وما إلى ذلك[١٢].

ثم أضاف قائلا: إنهم لا يعلمون أن الدخول في هذه المسالك الصعبة التي زَلّتْ فيها أقدامُ الكَمَلة، أمرٌ عظيمٌ كما أن هؤلاء العلماء لا يعلمون أن لكل مقامٍ مَقالًا، ولكل فنٍ رجالًا، وأن جَرْحَ من هو خالٍ عنه في الواقع، وتعديلَ من هو مجروح في الواقع، أمر ذو خَطَر، لا يليق بالقيام به كل بشر[١٣].

فالكتاب ذو أهميةٍ قُصْوَى وقد لقي قبولًا واسعًا بين الأوساط العلمية واعترف بفضله وأهميته علماء كبار، ويعدّ هذا الكتاب من جهةٍ أخرى من أهم المراجع والمصادر الموجودة في علم الجرح والتعديل.

وتشتمل مقدمة الكتاب على ثلاثة إيقاظات يذكر فيها المؤلف ملاحظات وتجارب هامة في هذا المجال، ثم يُعالِج مشروعية الجرح ويعلله، حيث

أثبت بالأدلة القيمة أن الجرح ضرورة شرعية لابد منه ثم يذكر شروط الجارح والمعدل وآدابه وما يجب له من الاهتمام، ثم يعرض أربعة مراصد، والمرصد الأول يضيء الجرح والتعديل وما يقبل فيهما وما لايقبل، ويتناول المؤلف فيه أقوالًا وآراءً كثيرةً في قبول الجرح، والمرصد الثاني يتناول مسألة تقديم الجرح والتعديل والتعارض بينهما بالتفصيل، والمرصد الثالث يشرح ألفاظ الجرح والتعديل ومصطلحاتها ودرجتها عند المحدثين والنقاد، والمرصد الرابع يعرض فيه المؤلف فوائد مهمة حول كتب أسماء الرجال وأخبارهم وغيرها من الاصطلاحات الحديثة وبسط فيها الكلام وقسّمها على واحد وعشرين إيقاظا.

التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد

هذا كتاب عظيم وشرح جليل ألّفه الإمام عبد الحي اللكنوي وقد بدأ الإمام تأليفه في أواخر ١٢٩٢هـ عندما كان عمره سبعًا وعشرين سنة ثم اعترضته أسفار وأعراض وأشغال، فأتم تأليفه في شعبان سنة ١٢٩٥هـ(١٤). وطبع أوّل مرّة بالمطبع المصطفائي بلكناؤ سنة ١٢٩٧ للهجرة ثم أعيدت طباعته سنة ١٣٠٦ للهجرة من نفس المطبعة، كما طبع مرة أخرى بالمطبع اليوسفي بلكناؤ سنة ١٣٤٦ للهجرة كذلك طبع أخيرًا سنة ١٤١٢ للهجرة بدارالقلم بدمشق في ثلاثة مجلدات مع تقديم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة و مع تحقيق وتحليل الدكتور تقي الدين الندوي أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الإمارات.

وهذا الكتاب حقًا شرح رائع لموطأ الإمام مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني يتجاوز مقدار الشرح من المتن الأصلي أضعافًا مضاعفةً، وقام الإمام اللكنوي بشرحه لنيل شفاعة النبي ﷺ ورضى الله حيث يقول: ... وكثيرا ما كان يَختَلِجُ في قلبي أن أشرح كتابًا في الحديث وأكشف أسراره بالكشف الحثيث، باعثا لرضا نبينا شفيع المذنبين، ورضاه رضا رب العالمين.... كما أن الإمام وجد إشارة إلى هذا العمل في منامه حيث يقول الإمام: .. رأيت في المنام كأني دخلت المسجد النبوي بالمدينة الطيبة، فإذا أنا بالإمام مالك جالسا فيه، فحضرتُ عنده، وصافحتُه، وقلت له: كتابكم «الموطأ» لي فيه اختلاجاتٌ وشكوكٌ، أرجو أن أقرأه عليكم لتحل تلك الشكوك، فقال فرحا ومسرورا: هات به واقرأه عندي،... حمدت الله على هذه الرؤيا الصالحة وشكرته»(١٥) وقمت بشرحه.

وأوضح الإمام فيه اختلاف المذاهب بتقديم الأدلة القوية والشهادات القيمة، ويقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في وصف الكتاب: «وقد ضمّنه الإمام زاهي علمه، وأرقى معرفته في الحديث الشريف وعلومه، وفي الفقه الحنفي والمذاهب الأخرى سائر ما يتصل بذلك من العلوم من بعيد أو من قريب، فجاء هذا الكتاب درةً فريدةً من درر العلم، وجوهرة نفيسة من أنفس الجواهر وسيجد القارئ المطالع فيه المزايا التي يتميز بها الإمام اللكنوي وسيُدهش من قوة ملكته ناصية التحقيق والتدقيق، والضبط والإتقان، ومناقشة المذاهب والآراء، والترجيح والتضعيف»(١٦).

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي حول هذا

الشرح: «وقد كان الإمام عبد الحي اللكنوي من أقدر الناس وأجدرهم على التعليق على الموطأ؛ لأنه كان يجمع بين الصلة العلمية القوية بالحديث والصلة العلمية المتينة بفقه المذاهب الأربعة، وبصفة خاصة بالمذهب الحنفي» وقد تلقى هذا الكتاب قبولًا فائقًا بين الدارسين والقرّاء.

أعمال الإمام عبد الحي في الفقه الحنفي

لم يكن الإمام عبد الحي محدّثًا فحسب؛ بل كان فقيها بارعا وكان يتولى منصب الإفتاء في الهند عامة وفي مدينة لكناؤ خاصة. وكان العلماء وعامة الناس يستفتونه في كثير من الأمور الدينية في المسائل الفقهية والعقائدية، وكان الإمام رحمه الله يفتيهم بما يراه راجحا في المسائل المختلفة، وكان يعتمد في ذلك على المصادر المعتمدة عند العلماء والفضلاء.

وألّف الإمام عبد الحي كثيرًا من الكتب القيمة في الفقه الحنفي وأصول الفقه حتى فَاقَ كثيرًا من أقرانه ومعاصريه في هذا المجال وهذه المؤلفات الثمينة تدلّ على علو كعبه في علم الفقه وأصوله وعلى سعة معرفته فيهما، ومن مؤلفاته الشهيرة في هذا الموضوع:

النافع الكبير شرح الجامع الصغير وحاشيته

يعتبر الجامع الصغير من أهم مؤلفات الإمام محمد بن الحسن الشيباني في الفقه الحنفي، وقد طُبِع هذا الجامع عدةَ مراتٍ في أماكن مختلفة، فأعاد الإمام اللكنوي طباعته مُحققا وأضاف إليه بعض التعليقات المفيدة عندما مست الحاجة إليها كما أزال بعض الإبهام والغموض عن المسائل المُعقّدة. وطُبِعَت هذه الحاشية مع الجامع الصغير بالمطبع المصطفائي سنة ١٢٩١هـ.

وكتب الإمام عبد الحي سنة ١٢٩١هـ مقدمةً ذات معلومات قيّمة لهذا الجامع وتحتوي المقدمة على أكثر من ٦٠ صفحة وقسّمها على أربعة فصول وخاتمة: فذكر في الفصل الأول طبقات الفقهاء والكتب وكيفية شُيُوع العلم خلفا وسلفا كما تناول في هذا الفصل بعض الكتب المعتمدة وغير المعتمدة مع فوائد نفيسة وفرائد لطيفة. وناقش فضائل «الجامع الصغير» الحميدة وصفاته الجليلة في الفصل الثاني مع بيان سبب تأليفه وبيان انتسابه إلى صاحبه وما إلى ذلك. وبيّن في الفصل الثالث تراجم الأئمة الثلاثة وفضائلهم: أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد كما نوَّه بأخذ الأئمة الكبار بعضهم عن بعض مثل الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل ومحمد بن حسن رحمهم الله وما إلى ذلك من أبحاثٍ قيّمةٍ. ويشتمل الفصل الرابع على ذكر شُرّاح «الجامع الصغير» ومحشّيه وعلى من قام بترتيبه وتنظيمه وقال الإمام في بداية هذا الفصل: «اعلم أنه لم يزل هذا الكتاب مطمحا لأنظار الفقهاء، ومنظرا لأفكار الفضلاء، فلا يدري كم من شارحٍ له ومحشٍ ومرتبٍ ومنظمٍ».

ثم ذكر بعضا من شرّاح هذا الكتاب النفيس. وتحتوي الخاتمة على ترجمة الإمام عبد الحي اللكنوي وقد بيّن الإمام اللكنوي أنه رأى أن يكتب ترجمته بعد تراجم الفقهاء الكبار راجيا أن يكون منهم ولو لم يكن مثلهم حيث يقول: «... فناسب ذكر ترجمتي عقيب تراجمهم، رجاء أن أكون معهم وإن كنتُ لستُ منهم»(١٧).

أضف إلى ذلك أن الإمام شرح «الجامع

الصغير» وسمّاه «النافع الكبير» وتم طبعه في مكتبة إدارة القرآن والعلوم الإسلامية من مدينة كراتشي، باكستان سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م وهو يشتمل على ٥٤١ صفحة.

أطال الإمام الكلام في هذا الشرح فإن معظم صفحاته يشتمل على سطرٍ أو سطرين أو أكثر من ذلك من أصل الكتاب «الجامع الصغير» والإمام عبد الحي شرح ذلك السطر أو سطرين في صفحة كاملة وربما في صفحتين أو أكثر. فإن الإمام شرح المتن شرحا وافيا مع بيان آراء الأئمة الآخرين واختلافاتهم وشرح العبارة بالأدلة النقلية والعقلية.

حاشية الهداية

كتب الإمام عبد الحي مقدمة قيّمة طويلة في ٢٣ صفحة للجزأين الأخيرين للهداية التي كتبها الشيخ برهان الدين علي بن أبي بكر عبد الجليل الفرغاني المرغيناني وقد تناول الإمام في المقدمة أبحاثًا نفيسةً مثل ترجمة الشيخ برهان الدين صاحب الهداية ثم ذكر أسماء كثير من العلماء والفضلاء الذين اعتنوا بكتابة الحواشي والشروح على «الهداية» كما بيّن معنى المختصرات والإشارات التي استخدمها صاحب الهداية مع بيان آراء العلماء الكبار حول الهداية ثم ذكر تراجم مختصرة للأعلام الذين جاء ذكرهم في «الهداية» وما إلى ذلك كما كتب الحواشي على هذه المقدمة باللغتين: العربية والفارسية.

وأما حاشية الجزئين الأخيرين فهي لوالد الإمام عبد الحي الشيخ محمد عبد الحليم كما صرح بذلك الإمام اللكنوي في خاتمة الطبع، ثم زاد عليها اللكنوي بعض الزيادات وطبعت هذه الحاشية مع «الهداية» من المطبع المصطفائي أكثر من مرّة في حياة اللكنوي و طبعت في المطبع اليوسفي بلكناؤ سنة ١٣٢٤هـ[١٨].

وفي سنة ١٢٨١هـ كتب الإمام اللكنوي مقدمة ثمينة ذات معلومات قيّمة للجزئين الأولين للهداية في ٤٦ صفحة أثناء إقامته في مدينة حيدآباد. وقسّم هذه المقدمة على ست توجيهات ناقش فيها ترجمة مؤلف الهداية وتصانيفه و عادات صاحب الهداية في هذا الكتاب مثل قوله «قال رضي الله عنه» وأراد به نفسه[١٩] وتأخير دليل المذهب الذي هو المختار عنده كما رتّب الإمام ذيلًا لمقدمة الهداية وسمّاه «مذيلة الدراية لمقدمة الهداية».

عمدة الرعاية في حل شرح الوقاية

عندما كان الإمام اللكنوي طالبا وكان يقرأ على والده الشيخ محمد عبد الحليم «شرح الوقاية» ألّف بعض التعليقات التي كان يتلقاها من والده أثناء الدرس وسمّاه «حسن الولاية بحل شرح الوقاية» كما يقول الإمام اللكنوي:

«كنتُ حين أقرأ شرح الوقاية على الوالد الماجد في آخر العشرة الثامنة من المئة الثالثة من الألف الثاني من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيات كتبتُ على بعض مواضعه بأمره الشريف تعليقا مشتملا على حل بعض المواضع وهو على النصف الأول من شرح الوقاية»[٢٠].

وكان هذا الشرح في غاية الإيجاز والاختصار ولهذا أعاد الإمام التعليق عليه مرة أخرى و بدأ يكتب «السعاية في كشف ما في شرح الوقاية» وأراد

أن يبسّط فيه المسائل الفقهية ودلائل مذاهب الأئمة مع بيان ما لها وما عليها، ثم تبيّن له أنه يستغرق وقتا طويلا لتكميله فاكتفى بشرح مختصر على هذا الكتاب باسم «عمدة الرعاية في حل شرح الوقاية» وأكمله سنة ١٣٠٢ هـ.

وقد طبع هذا الشرح في مجلدين بحروف دقيقة مع شرح الوقاية في جميع النسخ الهندية وهو يشتمل على ٦٤٥ صفحة بالقطع الكبير.

خلاصة القول أن الإمام عبد الحي من المحدثين والفقهاء الذين نفتخر بهم ومؤلفات العلامة بلغت نحو مئة وعشرة كتب، وإذا قيست كثرتها هذه بجانب عمره القصير الذي كان ٣٩ سنة، بدت كثيرةً جدا. وقال الشيخ عبد الفتاح أبوغدة: لو وزّعت صفحات مؤلفاته على أيام عمره رحمه الله تعالى، لظهر منها نبوغه النادر في التأليف و التصنيف، وظني أنها تفوق في كثرة صفحاتها الموزعة على أيام حياته ما قيل في كثرة تصانيف الإمام ابن جرير الطبري وابن الجوزي وأمثالهم، من الذين طالت أعمارهم وكثرت تواليفهم، هذا مع تأخر العصر وفتور الهمم واجترار العلم عند أغلب المؤلفين المتأخرين، بالإضافة إلى التأليف كان الإمام مولعًا بتدريس الحديث وكان يتحدث عن نفسه بأنه كان يجد في تدريس الحديث الشريف وأصوله وفقهه والتصنيف فيه من اللذة والسرور ما لا يجده في سواه من سائر العلوم والفنون[٢١]. وفي الختام أسأل الله أن يوفقنا للاستفادة من كتبه القيّمة خاصة ما كَتَبَه في علم الحديث النبوي والفقه.

* * *

الهوامش:

(١) الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥. بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م. ج: ٦، ص:١٨٧.

(٢) مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية – المجلد ٢٧ – العدد الأول – ٢٠١١م ص: ٣٤٥.

(٣) عبد الحي، الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، ط٧. القاهرة: دارالسلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٠ ص: ٢٠.

(٤) نفس المصدر ص: ٢١– ٢٢.

(٥) عبد الحي، الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، ط١، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ص: ١٤.

(٦) عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ط١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ج ٨ ص: ١٢٦٨.

(٧) عبد الحي، الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، ط١،، بيروت: دارالكتب العلمية سنة ١٤٠٥ للهجرة / ١٩٨٤م. ص: ٨.

(٨) نفس المصدر، ص: ١١– ١٨.

(٩) عبد الحي، الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، ط١، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ص: ٧.

(١٠) نفس المصدر .

(١١) عبد الحي، الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، ط٧. القاهرة: دارالسلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٠ ص: ١٦.

(١٢) عبد الحي، الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، ط٧. القاهرة: دارالسلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٠ ص٤٩– ٥٠.

(١٣) نفص المصدر ص: ٥٠.

(١٤) عبد الحي، التعليق الممجد على موطأ محمد، ط١، دمشق: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص: ٤٢ .

(١٥) نفس المصدر ٥٩– ٦٠ .

(١٦) نفس المصدر ص: ٤٢.

(١٧) الجامع الصغير مع شرحه النافع الكبير ص: ٦٠

(١٨) الإمام عبد الحي اللكنوي للدكتور ولي الدين الندوي ص: ٢٢٢.

(١٩) الهداية شرح بداية المبتدي، ط ١، كراتشي ص: ١٣.

(٢٠) الإمام عبد الحي اللكنوي للدكتور ولي الدين الندوي ص: ٢٢٣.

(٢١) عبد الحي، الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، ط١، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ص: ١٣.

الخلافة الشرعية وتطبيقها العملي في ضوء التاريخ

بقلم: **الأستاذ أسعد قاسم السنبهلي القاسمي**(*)

الخلافة نيابة عن خاتم النبيين محمد ﷺ في كل من تلاوة الكتاب، وتعليم الحكمة، وتزكية النفوس، وإقامة الجهاد في سبيل الله، تبليغا للدعوة إلى الشعوب وإظهارا لدينه على جميع الأديان. فيحل الخليفة محله، ويسير مساره؛ ليحافظ على النظام الشرعي، ويوسع حدوده ونطاقه، إلى ماتمتد الأرض من شاسع الأمكنة وأقاصي البلدان، وبالتالي يشع النور، ويتبدد الظلام، ويتذوق الأمم بيضا وسودا حلاوة الإيمان، و يدخلون في دين الله أفواجا، وقد أخبر نا النبي -ﷺ- عن ظهور الخلافة بعد وفاته، وقيام الخلفاء بحمل أعباء النبوة نيابة عنه في مختلف الصور والأشكال، فالصورة الأولى ما أشار إليه الحديث الذي رواه الإمام الترمذي في سننه.

«عن سعيد بن جمهان قال ثني سفينة قال: قال رسول الله -ﷺ- الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. ثم قال لي سفينة: أمسك خلافة أبي بكر، ثم قال: خلافة عمر، وخلافة عثمان، ثم قال: أمسك خلافة علي، فوجدناها ثلثين سنة»[1].

حقا، فقد حدث ما أخبر عنه النبي -ﷺ- فما إن لحق بالرفيق الأعلى حتى بايعه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أبا بكر على السمع والطاعة، ثم خلفه نوبة بعد نوبة عمر، و عثمان، وعلي، وابنه الحسن على قول بعض كبار العلماء. وذلك بفترة تمتد على ثلاثين سنة حسبما ورد في الحديث. ويقول رئيس الفقهاء والمحدثين العلامة أنور شاه الكشميري -رحمه الله- في شرحه على سنن الترمذي «العرف الشذي»:

خلافة أبي بكر ثنتان مع بعض الأشهر وخلافة عمر الفاروق عشر سنين مع بعض الشهور، وخلافة ذي النورين اثنتا عشرة سنة، وخلافة علي أمير المومنين أربع سنين، وخلافة حسن سبط النبي -ﷺ- عدة أشهر[2].

وقد اتفق الأئمة والأعلام على أن الخلافة الراشدة الأولى عهد نموذجي مثالي بين الحكومات والإمارات التي قامت بعدُ على أساس العقيدة والشريعة، ولا تزال تقوم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، فلا تساويه حكومة في الماضي إيمانا وبركة، ولا يضارعه عصر في المستقبل قسطا وعدلا، وسعادة وتوفيقا، وعملا ومعرفة، انتهى ذلك العهد

(*) أُستاذ الفقه والأدب العربي بجامعة الشاه ولي الله مرادآباد.

الرائع العظيم في بداية العقد الخامس من القرن الأول بتنازل الحسن بن علي -رضي الله عنه- عن منصب الحكم في حق الأمير معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-.

ومما تجدر إليه الإشارة أن ذلك الحديث يدل عند العلماء الأجلة على انقطاع الخلافة الراشدة استمرارا وتتابعا بعد وفاته بثلاثين سنة، ولا يستلزم أنها انقطعت كليا مطلقا حيث لاتقوم أبدا ولا يوجد بعدها أحد من الخلفاء الراشدين فيما يأتي من القرون والدهور، صرح بذلك الحافظ ابن كثير الدمشقي في مؤلفه الشهير «البداية والنهاية»:

وبيان أن الخلافة قد انقطعت بعد الثلاثين سنة لامطلقا؛ بل انقطع تتابعها، ولا ينفي وجود خلفاء راشدين بعد ذلك كما دل عليه حديث جابر بن سمرة[٣].

ولما تولى الأمير معاوية منصب الخلافة والإمارة سنة ٤١ من هجرة المدينة بدا لها العصر الثاني المديد، الذي أشار إليه النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما رواه الشيخان:

«عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي، خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء، فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: فوا بيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[٤].

وقال الإمام النووي: فالنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هوخاتم الأنبياء، ولكن جعل الله له خلفاء، خلفاء في العلم، وخلفاء في السلطة، والمراد بالخلفاء في هذا الحديث خلفاء السلطة.

وبما أخبرالنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن كثرة الخلفاء، طال ذلك العهد، واجتاز من عمره ١٣ قرنا فصا عدا، وظهر فيه من يربو عدده على ١٠٠ من الخلفاء الأمويين، والعباسيين، والأتراك العثمانيين، وغيرهم من الأمراء والسلاطين، الذين كانوا يحكمون الأندلس، والبلاد الإسلامية الأخرى على الدستور الإسلامي، مستقلين عن بغداد، عاصمة العباسيين وانتهى ذلك العهد الثاني من الخلافة الإسلامية عندما برز في تركيا الدكتاتور العلماني مصطفى كمال باشا، الذي قام بتنحية السلطان عبد الحميد عن الحكم، وإسقاط النظام الشرعي الموروث، بسنة ١٣٤٢هـ المصادف ١٩٢٤ من ميلاد المسيح.

ولا يفوتنا أن نؤكد أن العهد الثاني، عهد الخلافة الإسلامية غير أنه لم يصل إلى ماوصل الأول في اتباع خطوات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتطبيق الكتاب والسنة كل التطبيق؛ بل انحطت بذلك الخلافة لدرجة بالنسبة إلى عهدها الأول، الذي لايختلف عنه العصر الثاني إلا في اختيار الخلفاء، وتوليتهم لمناصب الحكم، فكانوا يتولونه في الخلافة الراشدة الأولى بالمشورة فيما بين السابقين والأولين، وبيعة أهل الرأي، وأعيان الأمة، وعامة المسلمين، ثم انحازت الخلافة إلى عائلة خاصة، وجرى التوارث بين أبنائها في الاستواء على منصب الحكم أبا عن جد، بما لايسع أحدًا من غير الأسرة

الحاكمة في فترة من الفترات، وأما النظام الإسلامي القديم، فلم يزل قائما متأسسا إلى حد كبير على ما كان عليه في العهد الأول من تطبيق الشريعة، وإقامة الجهاد، وتبليغ الدعوة إلى كافة الأقطار والأمصار، وتوحيد صفوف المسلمين وحمايتهم عن الغارات والحملات التي شنها اليهود والنصارى في مجالات الثقافة والحضارة، وجبهات الغزو والقتال.

فبدا لكل ذي عين وقلب سليم أن الخلافة الإسلامية الكبرى كانت مع تغيرها وانحطاطها دوحة باسقة، تجمع شمل المسلمين، وتظلهم في رحابها، وتعيد الثقة فيهم بأنهم بعثوا في الدنيا لقيادة العالم، وسيادة الشعوب والأمم، فلا يتجرأ عدو من أعدائها على أن يدمر البلاد، ويُقوض المقدسات، ويسفك الدماء، ويرمل النساء، وييتم الصبيان، كما نشهد ذلك بعد سقوطها في كل من فلسطين والشام، والعراق والجزائر، والهند واليمن، والبوسنة والشيشان، وبلاد الأفغان، نذوق كل يوم عذاب الخوف والجوع، حيناً بأيدى الإمبرا طورية الملحدة، وآخر بالديمقراطية الخبيثة، فكانت هي حقا خلافة إسلامية، ونعمة عظيمة كبرى، يشعر بها المسلمون شعورًا دقيقًا بعد أن حرموا خيرها وبركاتها، فليس الأمر كما زعم بعض الغلاة المعاصرين، الذين يصفون العهد الثاني بالنظام الجاهلي، الذي لايمتّ بصلة إلى الشريعة والدين، ويطلقون على ولاته قوارص الكلم من الجبابرة الظلمة، والفراعنة الطواغيت، وذلك ولا شك غلو وانحراف؛ فإن الرسول -ﷺ- وصفهم بالخلفاء، وأكد على بيعتهم وطاعتهم في حديثه، وحذّرهم من الخروج عليهم ما حافظوا على الشريعة والدين، ولو كان ذلك العهد جاهليا أسود لما خضع له النوابغ والأعلام، وما عاشوا في رحابهم مطيعين منقادين، هاهي صورة ثانية من خلافة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الصورة الثالثة من الخلافة الإسلامية الكبرى فقد أخبر عنها الرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الذي رواه الإمام أبو داود عن جابر بن سمرة قال:

سمعت رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «لايزال هذا الدين قائما حتى يكون عليهم اثناعشر خليفة كلهم تجتمع عليهم الأمة الخ»(٥).

اختلف المحدثون في تحديد هم شخصيا، فذهب الإمام البيهقي والنووي والحافظ العسقلاني وغيرهم من كبار العلماء إلى أن الحديث يشير إلى الخلفاء والسلاطين الذين أجمعت عليهم الأمة، ولم يختلف أمرهم فيما بين المسلمين، وهم بعد الخلفاء الأربعة، معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، ومروان ابن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وإذا قمنا بالمقارنة الدقيقة الأمينة بين الأدلة ودعاوي الإجماع، توصلنا إلى أن الخلفاء ازداد عددهم على اثني عشر، ولم يجمع المسلمون على الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، والحاكم الأموي يزيد بن معاوية، اختلف مع الأول معاوية بن أبي

سفيان وأتباعه من الصحابة والتابعين، ولم يرضوا بأمره حتى قتل شهيدًا عام ٤١هـ، وأما الثاني فلم يكد يحتل الخلافة حتى ثار النزاع، واشتد الخلاف في العالم الإسلامي، فقد مات هو، وكان المسلمون يجاهدون العساكر الأموية في البلد الأمين فكيف أجمعت عليه الأمة، إذ هو خطل في الرأي، وضعف في التقدير، كما حقق المحدث الشهير ابن كثير –رحمه الله– في البداية والنهاية:

«فهذا الذي سلكه البيهقي، وقد وافقه عليه جماعة من أن المراد بالخلفاء الاثني عشر المذكورين في هذا الحديث هم المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق الذي قدمنا الحديث فيه بالذم والوعيد، فإنه مسلك، فيه نظر، وبيان ذلك أن الخلفاء إلى زمن الوليد بن يزيد هذا أكثر من اثني عشر على كل تقدير، وبرهانه أن الخلفاء الأربعة أبوبكر، وعمر وعثمان، وعلي، خلافتهم محققة بنفس حديث سفينة: الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم بعدهم الحسن بن علي كما وقع لأن عليا أوصى إليه، وبايعه أهل العراق، وركب وركبوا معه لقتال أهل الشام، حتى اصطلح هو ومعاوية، كما دل عليه حديث أبي بكرة في صحيح البخاري، ثم معاوية، ثم ابنه يزيد بن معاوية، ثم مروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، ثم ابنه الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان بن عبد الملك، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، فهؤلاء خمسة عشر، وعلى كل تقدير فهم اثنا عشر قبل عمر بن عبد العزيز، فهذا الذي سلكه على هذا التقدير يُدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية، ويُخرج منهم عمر بن عبد العزيز، الذي أطبق الأئمة على شكره وعلى مدحه وعده من الخلفاء الراشدين، وأجمع الناس قاطبة على عدله، وأن أيامه كانت من أعدل الأيام، حتى الرافضة يعترفون بذلك فإن قال: أنا لا أعتبر إلا من اجتمعت الأمة عليه، لزمه على هذا القول أن لايعدّ علي بن أبي طالب ولا ابنه؛ لأن الناس لم يجتمعوا عليهما وذلك أن أهل الشام بكمالهم لم يبايعوها، وعد حبيب معاوية وابنه يزيد وابن ابنه معاوية بن يزيد ولم يقيد بأيام مروان ولا ابن الزبير كأن الأمة لم تجتمع على واحد منهما، فعلى هذا نقول في مسلكه هذا عادًّا للخلفاء أبا بكر، وعمر، وعثمان، ثم معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم عبد الملك، ثم الوليد بن سليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد، ثم هشام، فهؤلاء عشرة ثم من بعدهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق، ولكن هذا لايمكن أن يسلك؛ لأنه يلزم منه إخراج علي وابنه الحسن من هؤلاء الاثني عشر، وهو خلاف ما نص عليه أئمة السنة؛ بل والشيعة[٦].

هذا، ومن جهة أخرى مال بعض المحدثين الأجلة إلى أن الحديث يشير إلى ولاة الأمور، الذين يتمسكون في الحكم بأسوة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالنواجذ ويقودون المسلمين على منهاج النبوة، قيادة رشيدة أمينة، لايشوبها انحراف ولا تغير، فيتحقق في عهدهم ما تحقق في عهد النبوة والرسالة من المجتمع الإسلامي العظيم، الذي يمتاز بغلبة الإسلام، واستئصال الكفر، ويمتلئ برسوخ

الإيمان، وعظمة العبادة، و وفور القسط، واستقرار السعادة وكثرة الأمن، واستتباب الرغادة، فهم حقا خلفاء راشدون يبرزون حينا بعد حين في مختلف الأمكنة والأزمنة، كما نقله ابن كثير في البداية والنهاية عن الإمام الهمام شيخ الإسلام العلامة ابن تيمية الحراني رحمه الله.

«قال شيخنا العلامة أبو العباس ابن تيمية: وهؤلاء المبشر بهم في حديث جابر بن سمرة، وقرر أنهم يكونون مفرقين في الأمة، ولا تقوم الساعة حتى يوجدوا»[٧].

وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأولون، أبوبكر، وعمر، وعثمان وعلي، والحسن، وأما غيرهم من السبعة الآخرين فلا يمكننا أن نحدد هم تحديدا شخصيا؛ بل يكفينا الإشارة إلى الأمراء والسلاطين، الذين حكموا في عهدهم على طريقة النبي -صَلَّى ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والخلفاء الراشدين المهديين، مثل عمر بن عبد العزيز، ومحمد المهدي العباسي، والسلطان نور الدين الزنكى، وصلاح الدين الأيوبي، والملك الهندي عالمكير[٨] والسيد أحمد بن عرفان الشهيد، وغيرهم من الولاة الأتقياء، الذين تلألأ كلهم في التاريخ نجما ثاقبا وبدرًا منيرًا، وأما الخليفة الراشد الثاني عشر هو الإمام المهدي كما ذهب إليه الإمام أبو داود، والترمذي، والسيوطي، والسفاريني، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي فيقول المحدث الجليل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري:

المراد بهم الذين هم على سيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وآخرهم الإمام المهدي، وعندي هذا هو الحق، والتفصيل في ذلك ذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ومولانا الشيخ ولي الله الدهلوي في «قرة العينين في تفضيل الشيخين»[٩].

وتأكد مما تقدم أن الخليفة الراشد الأول بعد وفاة النبي -صَلَّى ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هو سيدنا أبو بكر الصديق -رَضِيَ ٱللَّٰهُ عَنْهُ- والخليفة الراشد الخاتم محمد بن عبد الله المهدي، الذي بشر النبي -ﷺ- أمته بظهوره في آخر الزمان مع الفتح الرائع، والانتصار العظيم على العالم كله ذلك. و هذا الموقف -كما نزعم- أكثر صحة واعتدالا من المواقف التي اختارها بعض الكتاب المعاصرين في شأن الخلافة الإسلامية الكبرى، إذ يبعد ذلك عن الإفراط والتفريط، وينطبق عليه جميع الأحاديث التي وردت في الإخبار عن ظهور الخلافة انطباقا دقيقا، حيث ينشرح به الصدر ويثلج الفؤاد.

* * *

الهوامش

١- الجامع للترمذي، أبواب الفتن، باب ماجاء في الخلافة.
٢- العرف الشذي على سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ماجاء في الخلافة.
٣- البداية والنهاية ج ٦ ص ٢٥٠.
٤- صحيح البخاري كتاب الانبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.
٥- رواه الشيخان وغيرهما واللفظ لأبي داود ج ٢ أول كتاب المهدي.
٦- البداية والنهاية ج ٦ ص ٢٤٩.
٧- البداية والنهاية ج ٦ ص ٢٥١.
٨- وصفه بالخليفة الراشد العالم العربي الكبير الشيخ علي الطنطاوي في كتاب رجال من التاريخ.
٩- بذل المجهود ج ٥ ص ١٠١.

* * *

كيف نُربِّيْ أنفسَنا؟

بقلم: **الأستاذ عثمان غني الهوروي القاسمي** (*)

إن المقومات التي اختارها الرسول -صلى الله عليه وسلم- لتربية الإنسان وتزكيته وإصلاح قلبه مقومات أبدية لا تتغير بتغير الظروف والأحوال، ولا يتبدّل ذلك الترتيب النبوي بتبدل عصر ومصر، وهذه المقومات قد أنزلها الله – عز وجل – من السماء كما أن ترتيبها قد فُطر الناس عليه.

فقد بدأ الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالأمر بالقراءة المطلقة عن المقروء، والمقيدة باسم الرب الذي خلق، خلق الإنسانَ من علق، ولم يكن أمام الرسول شيء مكتوب أو صحيفة مرئية إلا الجبال والسماء والأرض وما بينهما من الفضاء والشمس والقمر والنجوم، فالذي يريد أن يتربَّى فكريًّا ويترقّى روحيًّا يجب عليه أولًا وقبل كل شيء أن يقرأ الكونَ ويتفكر في خلق السماوات والأرض، ويقرأ آيات قدرة الله تعالىٰ في الأفاق وفي الأنفس حتى يعرف ربّه -تعالى- ويعرف أسماءه وصفاته، وليست ثمة قسمة إلى القراءة الدينية والقراءة الدنيوية، نعم عند الله قراءة باسم الرب وقراءة بدون اسم الرب، والأولى مطلوبة والثانية غير مطلوبة.

فالذي يقرأ العلوم الكونية بما لا يخالف الشرعَ وبقصد المعرفة الربانية ونيل الغذاء الروحي فقد أتى بابًا من أبواب الرحمة وتبنى المقررات التي تبني شخصيته بناءً إسلاميًّا، فقد أمرنا الله -تعالى- بالنظر في الكون و وَعَدنا بإراءة الآيات في العالم، فهل يمكن ذلك بدون المعرفة بدقائق النظام السماوي وعجائب ما في الأرض من الحيوانات والنباتات والجمادات وما يحتوي عليه كل واحد منها من الصنع المتقن والترتيب الحكيم؟

والذي يقرأ العلوم الدينية بغرض فاسد أو بما لايوافق الشرع لا يستفيد من علمه ولا يفيد غيره، فقد روى الإمام مسلم – رحمه الله – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتِي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ هو

(*) أُستاذ دارالعلوم/ ديوبند.

قارئ، فقد قيلَ، ثم أُمر به، فسُحِبَ على وجهه حتى ألقِي في النار». (رقم الحديث:٤٩٢٣)

فالمطلوب هو القراءة المربوطة باسم ربك، القراءة التي توصلك إلى معرفة الله الذي خلقَك والجبلة الأولين، والقراءة التي تربطك بالخالق هي المطلب الأهم، فليس المهم ماذا نقرأ؛ وإنما المهم الهدف الذي لأجله نقرأ. فاقرأ كل شيءٍ؛ ولكن بهدف الوصول إلى معرفة الله تعالى، وتعلّم كلّ علم، وليكن الهدف الأسمىٰ من التعلم اسم ربك، فالذي يجعل هذا المقصد نصب عينيه فلا عليه أن يقرأ العلوم أو الفنون، ولا عليه أن يتعلَّم الكلام والمنطق في المعاهد الدينية أو يتعلم التكنولوجيا والطبَّ في الكليات العصرية، فالمعنى اقرأ كلَّ شيء أو أوجدِ القراءة كما فسره العلامة المحلِّي، بتنزيل المتعدي منزلة اللازم، حتى تكون نفس القراءة مطلوبة بغض النظر عن مقروء دون مقروء أو علمٍ دون علمٍ بشرط أن تكون باسم «ربك» بمعنى الكلمة.

نعم نحن نفرق، فنقول: هذا علمٌ وذلك فنٌ، هذا دين وتِلك دنيا، هذا يكتسب الأجر والثواب بالقرآن والحديث والفقه وأصوله، وذلك يطلب المال ويحترف الجغرافيا والهندسة والطب، هذه عبادةٌ وتلك حِرفة، نعم نُقسِّم بين هؤلاء وأولئك ولكن الله -سبحانه وتعالى- ليس عنده هذا التقسيم، نعم عنده فرق بين القراءة لكسب المال والجاه فقط، وبين القراءة لمعرفة الله الذي يقول: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتٰبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:٧٩) وقال الرسول -ﷺ- «والذي يتعلم العلم مما يُبتغىٰ به وجه الله لايتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد ريحَ الجنة» (سنن أبي داود، رقم الحديث:٣٦٦٤).

بيدَ أن العلومَ التجريبية قد غلب فيها طلبُ المادة على طلب الإصلاح الروحي، والحرص على المال فيها أكثر من الحرص على الأجر، وذلك لعدم الاهتمام بالتربية الإيمانية اهتمامَهم بالتربية الاقتصادية، ولم تكن مشكلة في هذه العلوم نفسها؛ بل المشكلة قطع الوصلة بين هذه العلوم وبين خالقها، فإن العلماء الكونيِّين يربطون الحوادث الكونية بالأسباب الكونية، ويستنبطون لها أسبابًا ثم يقفون عند حد من الحدود المادية ولا يجدون وراءها سبيلا؛ لأن ذلك هو مبلغهم من العلم ولا يعرفون ما وراء الطبيعة.

وأما العبد المؤمن فيعرف أن الكون والطبيعة والأسباب المادية كلها مخلوق، والله تعالى هوالخالق، وكلها محتاج، والله هو الغني الحميد، وكلها أسباب والله -تعالى- هو رب الأسباب وبارئها، فهو عند ما يقرأ العلوم الحديثة ويطالع الحوادث الكونية يستخرج لها أسبابًا فِطريّةً وعلَلًا طبيعيّةً ثم يتفكر ويستنبط أسباب أسبابها وعلَل علَلِها ثم يتفكر ويتدبر حتى يبلغ ذلك المبلغ النهائي، ويصل إلى تلك القدرة القاهرة التي لا قدرة

فوقها، فتستقيم أخلاقه وقيمه على أصول من تقوى الله والإيمان بالجنة والنار، حتى تقوم شخصيته على أساس من العلم والبرهان.

إن هذه الأمة أمة وسط قد جعلهم رب السماوات والأرض شهداء على الخلق يشهدون على الناس بالخلق، وجَعَلهم أئمّةً، ليسوا أئمة للمساجد فقط؛ بل هم أئمة للناس كما أنّ إبراهيم – عليه السلام – كان للناس إمامًا، فيجب على أهل مِلَّته أن يرشدوا الناس في جميع شؤون حياتهم من العبادة والتجارة والزراعة والصناعة والطب والمواصلات والتعليم والتربية وما إلى ذلك، ولا يمكن ذلك إلا بالصبر عن الدنيا والعكوف على النفع، وإنَّ ما نراه اليوم للغرب من التفوق المادِّي والسيادة على الأرض والإمامة للناس لم يحصل لهم كل ذلك إلا بسبب نفع الناس بأجمعهم بشتّى أنواع النفع عن طريق الاختراعات الحديثة والتسهيلات الوافرة والخدمات المحَيِّرة للعقول في المجالات الإنسانية، وقد قال الرسول –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «سيد القوم خادمهم». (رواه البيهقي في الشعب برقم ٨٠٥٠، بلفظ سيدالقوم في السفر خادمهم).

وأول ما يتميز به العلم الصحيح من العلم الفاسد هو النية، فالذي يقرأ كتاب الله وسنة رسوله لابتغاء وجه الله وليتلو القرآن على الناس ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ، ولا يريد بذلك علوًّا في الأرض ولا من أعراض الدنيا شيئًا فهو يتربّى بهذه القراءة ويترقّى في هذا العالم المادِّي ويوم يقوم الحساب.

والذي يقرؤه ليقال: إنه قارئ، فذلك ما جاء في الحديث: إن أول الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن... الحديث، وهكذا من يدرس العلوم الطبيعة ليقال: إنه دكتور أو طبيب أو مُهندس، ولا يريد بذلك إلا أن يأكل أموال الناس أكلًا لَمًّا، دون أن يرقبُ في ذلك إلّا أو ذمَّة، فسيعجِّل الله له ما يشاء ثم يجعل له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا.

ومن أراد الآخرة ودرس علوم المدنيّة ليعرف بذلك خالق الكون وليتدبر آياته، ولينظر ماذا في السماوات والأرض، فيدرس ويتوسّم، ويتعلم ويتفكر حتى ينفتح قلبه للإيمان، وينشرح صدره للإسلام، ويجري على لسانه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١) فلا شك أن سعيه كان مشكورًا.

وثانيًا: التواضع، فإن العلم النافع هو الذي يأتي بالتواضع والخشية في العالم، والعلم غير النافع هو الذي يجلب الكبر والأنانية. وأكبر علامة للعالم أن يشعر دائما بجهله وقلة علمه؛ فإن العلم بحر لا ساحل له، ولا يقدر أحد أن يحيط بشيء من العلم إلا بما شاء الله، والجاهل يمكن أن يزعم أنه يعرف كل شيء، ولكن الذي يخوض في بحر العلم يخرج منه متواضعا يشعر أنه لا يعرف شيئا، ولا يزيده التقدم في العلم والمعرفة إلا شعورًا بالنقص في

العلم، والذي لايعلم ويظن أنه يعلم فهو الجاهل جهلا مركبا ويبقى أبد الدهر جاهلًا.

وثالثًا: الخدمة ونفع الناس، فإن اليد الواهبة خير من اليد الآخذة، ولـمّا نزل أول أمر من السماء بالقراءة رجع الرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- إلى خديجة بنت خويلد يرجُف فؤاده وقال: «إني خشيت على نفسي، فنبعت من فؤادها – رضي الله عنها – كلمات غرّاء تعزِّي بها رسولَ الله وتُخفِّفُ عنه من خوفه، وتُصوِّر شيئًا كثيرًا من حياته المثالية، وتُبيِّن جهودَه الجبّارة في خدمة الخلق ونفع الناس، فقالت: كلا والله! لا يخزيك الله أبدًا، إنّك لتَصل الرحم، وتحمِلُ الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق. (صحيح البخاري رقم الحديث:٣).

وهذه هي وجوه الإنفاق التي ورد الحث عليها كثيرًا في القرآن الكريم والسنة النبوية، ووُصِفَ البخل وعدم الإنفاق بالتهلكة حيث قال الله – جل وعلا – ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥).

وهذا الإحسان لايمكن أن يودّى حقه إلا بكسب الأموال ﴿التِيْ جَعَلَ اللهُ لَكُم قِيَامًا﴾ (النساء:٤) يقال: هو قيامُ أهله، إذا كان يتكفَّلُهم وينفق عليهم ويكون لهم عمادًا، والمال قد جعله الله معاشًا للإنسان في هذا العالم المادِّي، وهو الذي يقضى به المرء حاجاته، وبه تتوفر له تلك الوسائل التي لابد منها لنجاح النشاطات الدعوية والتربوية، فقد منَّ الله بذلك على رسوله حيث قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (والضحىٰ:٨) وقال الرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- لسعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ لك من أن تذرهم عالـةً يتكففون الناس» (صحيح البخاري رقم الحديث: ١٢١٥).

وقد ارتبط الاقتصاد اليوم ارتباطا وثيقا بالعلوم الكونية والفنون المدنية من الصناعة والتجارة، حتى الزراعة وآلاتها، و لا مفر من العلم الجديد، وقد تغافلنا نحن عن هذا الأمر، ولم ندرك هذه القرابة الواضحة بين قيام الحياة وبين العلوم الحديثة التي عَلَّمَناها ربنا الأكرم، ودوَّنتها أقلام الأمم. نعم العلوم الكونية التي بها طار الإنسان في الهواء وغاص في لجة البحار، واستطاع أن يتعامل مع الذرة حتى يستخدمها في أغراضه سلمًا وحربًا، ويخدم الخلق بأحسن ما يكون، ولكنا تركناها وراءنا ظِهريًّا، ونحن اليوم في حاجة إلى أن ندلي دلاءنا في هذه العلوم فنعيش خَدَمَةً مؤهلين نافعين للناس؛ فإن خير الناس من ينفع الناس، واقرؤوا إن شئتم قولَ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧).

❊ ❊ ❊

❊ ❊

أماكن بيع وشراء الكتب في الأندلس

إعداد: **د. علي سليمان محمد**(*)

كان لكل حرفة سوق خاصة بها، فهناك مثلًا سوق للبزازين، وأخرى للعطارين، وغيرها للسلاح، كذلك هناك سوق خاص بالكتب، ومما قيل في ذلك:

مجالسة السوق مذمومة
ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد
وسوق السلاح وسوق الكتب[٥٨]

يوجد ثبت طويل بمن كانت لهم عناية بشراء الكتب واقتنائها أشارت كتب التراجم إليهم ببعض العبارات مثل: «كان جماعًا للكتب» «اهتم بجمع الكتب» فاشتهر ابن فطيس بشراء الكتب واقتنائها، ومتى علم بكتاب عند أحد طلبه للابتياع منه، وبالغ في ثمنه فإن قدر على ابتياعه وإلا نسخه منه ورده إليه[٥٩]، وابن الفرضي» وصف بأنه كان جماعًا للكتب جمع منها أكثر ما جمعه أحد من عظماء بلده، ومحمد بن معمر القرطبي (ت٤٢٣هـ/١٠٣٢م) كان جماعًا للكتب عارفًا بعللها مميزًا خطوط ناسخيها حجة في عزوتها إلى وراقيها[٦٠]، والأورشي عبد الله بن حبان (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) كانت له همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها بلغ ثلثاها مئة وثلاثًا وأربعين عدلًا من أعدال الحمالين[٦١].

قد يظن أن اهتمام الأندلسيين بالكتب قاصر على الرجال فقط؛ لكن وجدت نسوة اهتممن بجمع الكتب منهن: عائشة بنت أحمد القرطبية (ت٤٠٠هـ/١٠٠٩م) كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر، وكانت لها مكتبة ضخمة[٦٢]، ومثلها رضيه مولاة الناصر التي أعتقها الخليفة الحكم وتزوجها لبيب الفتى وكان يعمل في قصر الخلافة، وخديجة ابنة جعفر كانت لها مكتبة ضخمة حبستها على ابنتها[٦٣]، ولا شك يؤدي ذلك إلى كثرة تردد الأندلسيين على أماكن بيع الكتب ومنها:

سوق الكتب بقرطبة

نتيجة لهذا الإقبال على الكتب ازدهرت تجارتها، واشتغل بها علماء وأدباء أجلاء، وتعددت أماكن بيعها، ومن أهمها سوق الكتب بقرطبة التي وصفت بـ«أنها أكثر مدن الأندلس كتبًا، وأهلها أشد اعتناء بخزائن الكتب»[٦٤]، يؤيد ذلك المناظرة التي جرت بين ابن رشد وابن زهر في مجلس الخليفة الموحدي أبي يعقوب المنصور، قال ابن رشد لابن زهر: «ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب

(*) كلية الآداب والعلوم – فرع أجدابيا، جامعة بنغازي – ليبيا.

بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية حتى تباع فيها»[٦٥] فهذا يدل على اهتمام أهل قرطبة بالكتب وكثرة الأسواق الخاصة بها.

وكانت طريقة البيع والشراء تتم في هذه الأسواق بالمزاد (المزاودة على حد تعبير ياقوت[٦٦]) وكانت المناداة السبيل للإعلان عن بيع كتاب ما فيزايد عليه الناس واحدًا بعد الآخر، ويوضح لنا هذا الأمر مشهد في سوق الكتب بقرطبة بين أحد الأثرياء، وأحد العلماء الذي كان يبحث عن كتاب ما أورده لنا المقري[٦٧] على لسان ذلك العالم، وكان يكنى بالحضرمي[٦٨] يقول: «أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع إليَّ بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المنادي بالزيادة إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، فأراني شخصًا عليه لباس ورياسة فدنوت منه، وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فرد عليه: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكنني أقمت خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير. قال الحضرمي: فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك. يعطى الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه».

يعلق ريبيرا[٦٩] على هذا المشهد بقوله: «رسم لنا صورة لما كانت عليه سوق الكتب بقرطبة، وتمكن الشغف بالكتب من النفوس حتى أصبحت مجرد ترف لدى الأثرياء».

نلحظ أن طريقة بيع الكتب في الأسواق عن طريق المزاد كانت هي الشائعة في مختلف المدن بالأندلس، ومن ذلك أن مكتبة ابن فطيس بيعت بعد وفاته وظل السماسرة والدلالون يترددون على مسجد الأسرة مدة عام كامل ليشهدوا بيعها في المزاد العلني[٧٠].

لم تكن عملية شراء الكتب من الأسواق يسيرة؛ بل كانت بحاجة إلى الخبرة والدراية، وهنا وجد ما عرف بسمسار الكتب أو الدلال – وهو على ما يبدو – شخص موكل بالترويج والدعاية للكتب والنداء عليها كما كان ذوو الحاجة لشراء الكتب يستعينون به لشراء الكتب بأثمان معقولة، ولاشك كانت الاستعانة بهؤلاء السماسرة مقابل أجر متفق عليه[٧١] بمعنى أن هؤلاء الدلالين كانوا يرتزقون بالسمسرة في سوق الكتب، حيث يفهم من كتب النوازل أن الدلال عامة كان موجودًا في الأسواق المختلفة، وأنه كان يتقاضى من المشتري جُعلا يتفق معه عليه، ومن أمثلة ذلك ما سئل عنه الفقيه ابن رشد عن الدلال يبيع لنفسه سلعة هل يجوز له أن يأخذ عليها أجرة أم لا؟[٧٢] يؤكد ذلك المراكشي[٧٣] عن مصحف عثمان – رضي الله عنه –

بالأندلس زمن الموحدين عندما نهب وشوهد بيد سمسار ينادي عليه بسوق الكتب بتلمسان بسبعة عشر درهمًا، ويبدو أن هذا الأمر كان سائدًا في أسواق الكتب في مصر أيضًا حيث أشار بعض الباحثين[٧٤] إلى احتواء سوق الكتبيين بالقاهرة على دلالين أو سماسرة يعملون بها وكانوا يرتزقون منها.

دكاكين بيع الكتب

بجانب الأسواق العامة كانت هناك دكاكين خاصة في أماكن ثابتة ويبدو أنها كانت متجاورة، وكان يطلق على الشارع الموجودة به شارع الوراقين خاصة في المدن الكبرى، وبعضها كان يوجد بجوار المساجد مثل دكان أبي إسحاق إبراهيم بن مبشر (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) قرب المسجد الجامع بقرطبة[٧٥]، وهذه الحوانيت كانت تقوم مقام دور النشر والمكتبات في أيامنا[٧٦]، وغالبًا ما كان أصحابها من العلماء الذين لهم خبرة بالكتب بحيث يستطيع تلبية رغبة عملائه[٧٧] مثل: محمد ابن سيدراي (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) في بلنسية كان يبيع الكتب في دكان له[٧٨]، وفي بلنسية أيضًا استقر ابن مطروح التجيبي (ت٦٠٦هـ/١٢١٠م) ورَّاقًا يبيع الكتب، وفي دكانه كان يجتمع الأدباء[٧٩] وكانت بلنسية المدينة المختارة للوراقين الفارين من الضغط النصراني فإليها انتقل من سرقسطة ابن الصغير، وكان من كبار تجارها، وخلفه ابنه أحمد وأصبح نساخًا، وله خبرة بأنواع الكتب[٨٠]، وابن نوح الغافقي من سر قسطة وانتقل إلى بلنسية واشتهر بحبه للكتب والتجارة فيها، وكان ابن منتيال الورَّاق من أهل مربيطر (ت٦١١هـ/١٢١٥م)، سكن بلنسية وله دكان بالقيسارية يقعد فيه للتجارة وبيع الكتب[٨١]، وأبو العباس ابن فرتون الغرناطي، كان ورَّاقًا يبيع الكتب[٨٢]، وكان أبو عمران موسى بن حسين الزاهد من إشبيلة (ت٦٠٤هـ/١٢٠٨م) يتقوت من أثمان الكتب التي معه يبيعها شيئا بعد شيء إلى أن فنيت[٨٣].

وهنا يثار تساؤل عن كيفية بيع الكتب في هذه الدكاكين، هل كانت توضع علامة على الكتب يفهم منها أن هذا الكتاب خرج من هذا الدكان – كما تفعل دور النشر في أيامنا-؟ هناك إشارة إلى مثل ذلك في حواشي غلاف مخطوط «نظم الجمان» عبارة عن خاتم نقش فيه اسم «عبد القادر القادري» - وإن كان ذلك يبدو متأخرًا – ويرجح محقق الكتاب أنه يبدو لمتجر من متاجر الكتب[٨٤].

كانت تجارة الكتب تتم أيضًا في مجالس العلم وكان صغار تجار الكتب يتنقلون بين هذه المجالس لعرض ما معهم من كتب على أصحابها، ومن ذلك مايرويه القاضي ابن العربي(٨٥) (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) في مقدمة كتابه «ترتيب الرحلة» عن سبب رحلته إلى المشرق يقول: «كنت يومًا جالسًا مع بعض المعلمين فجلس إلينا أبي يطالع ما انتهى إليه علمي وجلس بجلوسه من حضر من قاصديه، فدخل أحد السماسرة وعلى يديه رزمة كتب فحل شناقها[٨٦] وأرسل وثاقها، وعرضها عليهم لبيعها.

كانت تجارة الكتب تتم كذلك بين العلماء وربما في منازلهم، فقد اشترى ميمون بن ياسين

(ت٥٣٠هـ/١١٣٠م) مـــن ابـــن أبي ذر الهـــروي صحيح البخاري من أصل أبيه بمال كثير[٨٧]، كذلك اشترى عيسى بن يوسف (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود بمال كثير كذلك[٨٨]، خاصة وأن بعض العلماء كان يضطر إلى بيع كتبه لضائقة مالية تعرض له؛ مثلما حدث مع أبي العباس بن غالب المالقي الذي تعرض لضائقة مالية اضطر بسببها لبيع أصول بعض كتبه فكتب إليه صديقه أبو محمد القرطبي معاتبًا.

نبئت عباسًا تُوزع كتبه نهبًا
وأصبح عن سواها مُعزلًا
فعجبت من بطل يبيع سلاحه
عمدًا ويصبح في الكتيبة أعزلًا

فرد عليه أبو العباس بقوله:

بعت الدواوين الأصول لكي
أروى بأصول أشجار شريت مولًا[٨٩]

ومن المظاهر الشائعة في الأندلس وفي غيرها من أقاليم الدولة الإسلامية قديمًا وحديثًا، فيمايتعلق بالتجارة في الكتب بيع كتب المتوفى، وبخاصة إذا لم يكن من بين الورثة أحد من أهل العلم أو لم يعقب، وهناك أمثلة كثيرة تدل على ذلك منها: بيع مكتبة ابن فطيس بعد وفاته[٩٠]، ولما توفي فاتن مولى ابن أبي عامر (ت٤٠٢هـ/١٠٤١م) مكتبته بيعت في تركته كتب مضبوطة مصححة؛ لأنه لم يكن له وارث إذ كان من الصقالبة[٩١]، وباع ورثة محمد الغافقي (ت٤٣٣هـ/١٠٤١م) مكتبته بعد وفاته وقومت الورقة في بعضها بربع مثقال، وكان لدى عبد الرحمن بن ملجوم (ت٦٠٥هـ/١٢٠٨م) مكتبة بيعت بعد وفاته بأربعة آلاف دينار[٩٢]، وهذا أمر طبيعي يحدث في كل زمان وبخاصة إذا لم يكن من الأبناء من على شاكلة الأب في الاهتمام بالعلم، وليس فيه ما يدعو للأسف كما أظهر ذلك بعض الباحثين[٩٣]؛ لأن هذا أمر شائع، فمثلًا اشترى المعهد المصري في مدريد تركة بروفنسال من ورثته، وكان من بينها مخطوطات كثيرة نادرة مثل مخطوط نظم الجمان لابن القطان[٩٤]، وفي مصر أيضًا بيعت كتب ابن حجر العسقلاني بعناية ولده، وأسف على بيعها تلميذه السخاوي؛ بل إن في هذا منفعة وفائدة أكثر من حبس هذه الكتب في مكتبة لا يراها أحد، ففي انتشار الكتب بين عدد أكبر من المستفيدين يؤدي بلا شك إلى انتشار العلم والثقافة في المجتمع، وهذا ما لاحظناه بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وتفرق الكتب في ممالك الطوائف الأمر الذي أدى إلى ازدهار الحياة الثقافية خلال هذا العصر على الرغم من الضعف السياسي، وعدَّ هذا مظهرًا إيجابيًا للفتنة البربرية.

أسعار الكتب

تخضع الكتب باعتبارها سلعة لقانون السوق (العرض والطلب)، ولها أوقات رواج وتصاب أحيانًا بالكساد، ومرتبطة بالحياة العلمية والثقافية السائدة في عصر ما، فإذا وجد حكام اهتموا بالعلم ازدهرت تجارة الكتب وراجت سوقها والعكس صحيح، وكانت تجارتها تجري كما يجري تصريف أي تجارة؛ حيث يتساوم البائع والمشتري في السعر، ولم

تكن الأسعار المحددة معروفة[٩٥] على الرغم من قول البعض[٩٦]: إن المحتسب مارس الرقابة على سوق الكتب وحدد أسعارها؛ لكن لا دليل يؤيد ذلك سواء في المشرق أو الأندلس.

هناك عوامل لا شك أثرت في أسعار الكتب، فمؤلف الكتاب ومادته وشهرة الخطاط والتجليد من الأشياء التي تحدد سعر الكتاب، فالمخطوط المكتوب بخط مؤلفه ثمنه أعلى من غيره، فالناس يتنافسون في شراء الكتب التي بخط مؤلفيها، فمثلًا أحمد بن عبد العزيز الوراق (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م) كان حسن الخط فتنافس الناس فيما وجد بخطه من الدواوين[٩٧]، ومكتبة محمد بن يحيى الغافقي (ت٤٣٣هـ/١٠٤١م) التي كانت نسخًا فريدة بخطوط مؤلفيها مثل كتاب «إصلاح المنطق» بخط القالي، وتاريخ الطبري بخط ابن ملول الوشقي، وبيع هذا كله في تركته وقومت الورقة في بعضها بربع مثقال[٩٨]، كما أن نسبة الكتاب إلى شخص – الإهداء – كخليفة أو أمير لا شك يؤثر في سعر الكتاب، ومن الطبيعي أن تزداد قيمة مثل هذه الكتب[٩٩].

وجدت بعض الكتب مدونًا عليها اسم المشتري وثمن الكتاب بما يشبه الفاتورة في أيامنا، – ربما كان ذلك في فترة متأخرة – وهنا يثار تساؤل هل كانت دكاكين بيع الكتب أو غيرها تكتب سعر الكتاب عليه كما يحدث الآن؟ ففي مخطوط فهرسة ابن عطية (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) مثلًا: نص تملك لصاحب نسخة هي بخط المؤلف نصها «صارت هذه الفهرسة بالملك الصحيح الشرعي لمحمد بن علي بن أحمد ابن مسعود العبدري وهي أصل مؤلفها ابن عطية»[١٠٠]، كما يوجد نص تملك لكتاب تحفة الأنفس لابن هذيل (ت بعد عام ٨١٤هـ) مدون فيه ثمن الكتاب واسم المشتري[١٠١]، بما يفهم منه أن المشتري كتب اسمه وسعر الكتاب بعد صفحة الغلاف كما يفعل بعضنا الآن، وكان ثمن هذا الكتاب ثلاثة دنانير.

وهناك بعض النوازل التي تخص التجارة في الكتب يتضح منهاأنها كانت رائجة ومنضبطة بقواعد الشرع، وكأي تجارة كانت تنشأ أحيانًا بين أربابها منازعات وخلافات، عرضت على الفقهاء للفصل فيها، ومن أمثلة ذلك: مسألة ذكرها ابن الحاج في نوازله، فقد سئل عمن اشترى كتابًا، ثم جاء آخر وادعى أن ذلك الكتاب له، وأنه ضاع منه من زمن طويل وأتى بعقد تضمن معرفة الشهود بذلك[١٠٢] بما يفهم منه أن بيع وشراء الكتب كان يتم بكتابة عقد بين الطرفين ويوثق بالشهود، ومنها: أن رجلا ابتاع كتبًا فقام آخر يطلبها، وأقام بينة أنها كانت له وزالت عن يده بوجه ذكره[١٠٣]، وهناك قضايا أخرى تتعلق باستعارة كتب وتلفها أو فقدها، واتهام صاحبها للمستعير بحبسها ويلزمه بردها، وخاصة أنه متعود على استعارة الكتب وجحدها[١٠٤].

من المسائل التي عرضت على الفقهاء كذلك التجارة في كتب الخرافات والشعوذة؛ إذ حرموا بيعها والنظر فيها وكذلك كتب الأحكام للمنجمين وكتب العزائم[١٠٥]، ويفهم من ذلك وجود بعض الكتب غير المرغوب فيها والتي لم تشر إليها المصادر

ربما كانت بسبب نظرة الناس إليها، كما أشارت كتب النوازل أيضًا إلى عدم جواز بيع المصاحف والكتب التي بها أخطاء أو عيوب حتى يبين البائع للمشتري الخطأ حتى لو أدى ذلك إلى بخس الكتاب(١٠٦)، وهذا يدل على تحري الدقة والأمانة التي يجب توافرها في التاجر عامة، كما وردت بعض المسائل المتعلقة بتحبيس الكتب وما يصاحبها من مشاكل منها: أن أحد الناس حبس كتبًا ثم باعها(١٠٧)، وأخرى فيمن حبس كتبًا بشرط ألا يعطى منها إلا كتاب بعد كتاب(١٠٨) إلى الخ..

آثار التجارة في الكتب

مما لاشك فيه أن الكتب أسهمت بدور كبير في إثراء الحياة الثقافية وتغذيتها بكل جديد ومفيد، فشاعت المعرفة وعم العلم، خاصة وأن الأندلسيين عرفوا بشغفهم بالقراءة واقتناء الكتب، فكان أبو عمران موسى بن سعيد (ت٦٤٠هـ/١٢٤٢م) شغوفًا بمطالعة الكتب لايتركها حتى في أيام الأعياد وكان يجد في ذلك لذة وراحة(١٠٩)، ومما يذكر عنه أنه عندما تولى إمرة الجزيرة الخضراء من قبل ابن هود(١١٠) علم أن أحد أعيانها لديه كراريس تحوي أخبارًا عن الموحدين، فأرسل إليه راغبًا في استعارة هذه الكتب ليطلع عليها فرفض وقال: إن كانت له حاجة يأتي على رأسه، فأتى إليه أبو عمران في منزلة فلم يحسن ضيافته، وبعد أن اطلع على هذه الكتب شكره وهدأ من غضب ابنه لهذه المعاملة السيئة من الرجل بقوله: إنه لم يذهب إليه وإنما إلى ما في بيته من الكتب وأقنعه بأنه لو كان أصحاب هذه الكتب أحياء مجتمعين في موضع واحد لذهب إليهم والأثر ينوب عن العين وقال: لقد سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية(١١١).

كما أدت وفرة الكتب إلى زيادة الإقبال على القراءة والتأليف، وما يدل على كثرة عدد الكتب وشيوعها في الأندلس أنه بعد استيلاء النصارى على غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م جمع الأسبان مليونين من المخطوطات وقاموا بإحراقها في ميدان الرملة بغرناطة(١١٢) وهذا ما جعل دوزي يصف الأندلسيين بأن معظمهم كان يجيد القراءة والكتابة.

كانت أماكن بيع الكتب سواء الأسواق أم دكاكين الوراقين أماكن مشهورة أيضًا بالعلم والتعليم واللقاء بين العلماء، فكان دكان أبي إسحاق القرطبي (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) مكانًا لتعليم المبتدئين القراءة والكتابة(١١٣)، كذلك كان دكان أبي بكر التجيبي (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) مألفًا لجلة من طلبة العلم والعلماء بإشبيلية، يأتون إليه لمجالسته والاستفادة منه(١١٤)، وفي بلنسية استقر ابن مطروح التجيبي وكان ورَّاقًا يبيع الكتب، وفي دكانه كان يجتمع البلنسيون تجذبهم إليه ثقافته الواسعة، فكانت هذه الدكاكين إذًا من أبرز الأماكن التي أرست دعائم الحياة الثقافية في الأندلس، وكانت مقصدًا لطلاب العلم والمعرفة، ومكانًا للمناظرات الأدبية والعلمية، يؤمها المثقفون والأدباء والعلماء ويتخذونها منتدى لهم، وملتقى لاجتماعاتهم وإقامة مناظراتهم، وتحولت هذه الحوانيت شيئًا فشيئًا

فصارت مقصدًا لكل من يبغي علمًا أو يهوى أدبًا حتى أنها وصفت بالمعاهد العلمية(١١٥).

وكانت الكتب أيضًا وسيلة اتصال بين العلماء والمثقفين، وهذا ما نجده في كتب التراجم من عبارة «سمع المؤلف من، أو أخذ عن، أو روى عن» وهذا يعني أن الكتاب أداة لتوسيع نطاق الاتصال، ولم يقف الاتصال عن طريق الكتب بين الأساتذة والطلاب؛ بل تعدى ذلك إلى اتصال بين علماء الشعوب كما حدث بين علماء المشرق والأندلس، ولعل برامج الشيوخ والفهارس التي برع الأندلسيون في تصنيفها لأساتذتهم أو لمن قابلوهم وأخذوا عنهم العلم دليلٌ على ذلك.

كذلك لم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح، وإنما كانوا أدباء ذوي ثقافة عالية اختاروا هذه المهنة؛ لأنها توفر لهم فرص القراءة والاطلاع، فقد قاموا بنسخ الكتب المهمة وأصبح للكتاب أكثر من نسخة وعرضوها على الراغبين فيها مما أدى إلى الحفاظ عليها وإبقائها، وتشجيع العلماء على التأليف والإنتاج، ومن ذلك مثلًا ابن حيان – مؤرخ – الأندلس (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م) الذي كان واسع الاطلاع جماعًا للكتب، في تأليف كتابه المقتبس في الفترة السابقة عليه فهو لا ينقل إلا عن أصول»(١١٦).

ومن آثار تجارة الكتب كذلك أن شهد عصر الطوائف نهضة علمية على الرغم من الضعف السياسي(١١٧)، ويرجع ذلك إلى أن عصر الأمويين كان بمثابة فترة إعداد لهذا النضج العلمي، إذ تجمعت خلاله موارد غزيرة في كل فرع من العلوم، واضطرت الأوضاع الجديدة العلماء إلى الهجرة من قرطبة إلى مختلف النواحي وحملوا معهم مجموعات قيمة من الكتب التي كانت مخزنة بقرطبة في بيوتهم، وفي مكتبات قرطبة العامة وبيع كل ذلك بأبخس الأثمان، ومن ثَمَّ انتشرت تلك الكتب في أقطار الأندلس المختلفة.

ثمَّ إنَّ الاهتمام بالكتب والحرص على جمعها في مختلف أنواع العلوم، له أثره في مفاهيم الناس وأفكارهم، فبسبب اهتمام الخليفة الحكم بكتب الأوائل كثرت هذه الكتب في عصره، واطلع عليها الناس وعرفوا ما فيها فكان لذلك أثره في اهتمام البعض بدراسة علوم الأوائل كالفلسفة والفلك وغيرها مما نجم عنه ظهور متخصصين في هذه العلوم.

كذلك مثلت التجارة في الكتب موردًا للدخل لبعض الأندلسيين فإذا لم يكن العالم ذا منصب ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب وبيعها مثل: محمد بن إبراهيم ابن عبد الرحمن (ت بعد٤٥٠هـ/ ١٠٣٣م) من أحفاد الحكم الربضي، كان يعتمد في معيشته على نسخ الكتب وبيعها(١١٨)، والضبي (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) احترف نسخ الكتب وحصّل من عمله هذا مالًا كثيرًا(١١٩)، وعلي ابن محمد بن ديسم (ت٦٢٤هـ/١٢٢٧م) من مرسية كان يعيش من نسخ المخطوطات وبيع الكتب، وذكر بالنثيا(١٢٠) عن ابن بسام (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) أنه صنف كتابه بإشبيلية وعاش من قلمه ومضى يدبج التراجم مقابل المال، وكان ذلك أمرًا شائعًا، صنعه

ابن خاقان أيضًا، ويرى دوزي أن ما كان ابن بسام يصيبه من المال من أولئك الأثرياء يشبه الأتعاب التي يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين، وأن تجارة الكتب قد حققت الثراء لبعض التجار مثل: أحمد بن أبي القاسم الذي أكثر من شراء الكتب وأنفق عليها بسخاء حتى لقد أثرى كثير من التجار نظير العمل معه فيها(١٢١).

خاتمة

تبين مما سبق أن الكتب شكلت جانبًا مضيئًا في تاريخ الحضارة الأندلسية، ولما كانت الدولة الإسلامية تمثل وحدة ثقافية كانت الكتب تنتقل بين أقاليمها المختلفة، فأسهم التجار والعلماء في جلب الكتب من مختلف الأنحاء إلى الأندلس، واهتم الأندلسيون من جانبهم بالعلم والكتب وبذلوا بسخاء لاقتنائها وشجعوا المؤلفين على الإنتاج والتأليف، بالأموال والعطايا السخية والوظائف المرموقة.

ونتيجة لازدياد الطلب على الكتب قام منتجو الكتب بالعمل بالنسخ والمقابلة تحقيقًا للدقة والضبط، ثم تجليدها وإخراجها في شكلها النهائي لعرضها في الأسواق العامة والدكاكين الخاصة لبيعها، ولم يكتف الأندلسيون بشراء الكتب واقتنائها في بيوتهم؛ بل قام كثيرون بحفظها عن ظهر قلب كابن عبدون مثلًا الذي كان أيسر ما يحفظه كتاب الأغاني.

تعددت أماكن بيع الكتب فكانت تقام في المدن الرئيسة مثل قرطبة وإشبيلية معارض عامة ربما كانت سنوية يترقبها الناس، يبحثون فيها عما ينشدونه من كتب، وكانت تتم فيها عملية البيع والشراء عن طريق المزاد العلني حيث كان ينادي السمسار – الدلال – على الكتاب المراد بيعه أمام الناس ويظفر به من يقدم أعلى سعر، ومن المؤكد أن أسعار الكتب اختلفت بحسب نوعية الورق وجودة الخط والتجليد وقيمة الكتاب وشهرة مؤلفه ومكانته العلمية وغير ذلك، كما وجدت الدكاكين الخاصة ببيع الكتب، وأحيانًا كانت تباع الكتب في مجالس العلماء حيث يجتمع الأساتذة مع الطلاب مما يجعلها أماكن مناسبة لرواج هذه التجارة.

ومن المظاهر الشائعة كما هو الحال في كل عصر بيع كتب المتوفى بناء على رغبة ورثته أو من لا عقب له، وأن هذا كان من الأشياء المفيدة التي أدت إلى انتشار العلم والثقافة في المجتمع بدلًا من حبس هذه الكتب عند من لا ينتفع بها، بحيث يمكن أن يعد من إيجابيات سقوط الخلافة تفرق الكتب في مدن الأندلس المختلفة مما أثرى الحياة العلمية في عصر الطوائف، وكانت التجارة في الكتب كأي تجارة تنشأ بين أربابها منازعات عرضت على الفقهاء للفصل فيها فوردت في كتب النوازل بعض المسائل المتعلقة بتجارة الكتب.

أسهمت تجارة الكتب في إثراء الحياة الثقافية والعلمية، فكثر النسخ والتأليف مما أدى إلى تعدد النسخ من الكتاب الواحد مما حافظ غالبا على أكثر التراث من الضياع، كما وفرت مادة علمية للمؤلفين اعتمدوا عليها في كتابة مؤلفاتهم، كما قامت دكاكين الكتب بدور كبير في نشر العلم، والاتصال بين العلماء فكانت أشبه بالمعاهد العلمية.

ولا شك كانت تجارة الكتب أيضًا مصدرًا لدخل العاملين فيها، يعتمدون في معيشتهم على ما يربحونه منها، وحقق بعضهم ثراءً نتيجة اشتغاله بهذه التجارة، وأسهمت في حفظ التراث وساعدت على انتشار العلوم وتعميمها وتسهيل انتقالها من مكان إلى آخر في كل أرجاء الدولة الإسلامية.

❋ ❋ ❋

الهوامش:

(٥٨) الخطيب البغدادي: تقييد العلم: ص١٢٥، المقريزي (تقي الدين أبوالعباس أحمد بن علي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) : الخطط، الجزء الثاني، سلسلة الذخائر٥٢، القاهرة، ص١٠١، ربحي عليان: المكتبات في الحضارة الإسلامية، دار صفاء، عمان ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص٨٥-٨٦.

(٥٩) ابن بشكوال: كتاب الصلة، الجزء الأول، ص٣٠-٣١١، ابن خير: فهرسة، الجزء الأول، ص١٦٧، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء السابع عشر، ص٢١٠، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص٧٠٤-٧٠٥، بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة، نايف أبوكرم، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص١٩٥.

(٦٠) ابن بشكوال: كتاب الصلة، الجزء الأول، ص٢٥٣، المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني، ص٣٢٩، حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ص٩٩-١٠١.

(٦١) الضبي: بغية الملتمس، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٦٢) ابن بشكوال: الصلة، القسم الثاني، ص٦٩٣.

(٦٣) ابن بشكوال الصلة، القسم الثاني، ص٦٩٨.

(٦٤) المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٦٢.

(٦٥) المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٦٣.

(٦٦) معجم الأدباء، الجزء الخامس، ص٦٩.

(٦٧) نفح الطيب،المجلد الأول، ص٤٦٢-٤٦٣.

(٦٨) هناك أكثر من شخص حملوا هذه الكنية وربما المقصود هنا جابر بن محمد بن سليمان الحضرمي الأشبيلي وهو أستاذ نحوي كان متقنًا لكتب سيبويه توفي ٥٩٦هـ. السيوطي: بغية الوعاة، الجزء الأول، تحقيق، محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر١٩٧٩، الطبعة الثانية، ص٤٨٤.

(٦٩) التربية الإسلامية في الأندلس، ص ٢١٠-٢١١.

(٧٠) ابن بشكوال: الصلة، القسم الأول، ص٣٠٩-٣١١، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٧١) هالة شاكر: الوراقة والوراقون، عين للدراسات، القاهرة٢٠٠٤، الطبعة الأولى ص٢١٩-٢٤٦.

(٧٢) ابن رشد (محمد بن أحمد ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): مسائل أبي الوليد بن رشد، المجلد الثاني، تحقيق محمد حبيب التجكاني، دار الجيل الإسلامي، بيروت، لبنان ١٩٩٣م، الطبعة الثانية ص٨٣١-٨٣٢.

(٧٣) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، القسم الأول، السفر الأول، ص١٥١-١٧٠، وعن مصحف عثمان ورحلته شرقًا وغربًا راجع، سحر سالم: نصوص تاريخية في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٩٧م، ص١٢٨-١٩٠.

(٧٤) يسري زيدان: سوق الكتبيين بالقاهرة في عصر سلاطين المماليك، ندوة التاريخ الإسلامي، دارالعلوم جامعة القاهرة، العدد ٢٠٠٧، ٢١، ص٣٤٩.

(٧٥) ابن بشكوال: الصلة، القسم الأول، ص٨٨.

(٧٦) عبد الستار الحلوجي: الكتاب العربي المخطوط، ص٢٩٨-٢٩٩.

(٧٧) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٨٥.

(٧٨) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس، ص٢١٨-٢١٩.

(٧٩) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص٩٥.

(٨٠) ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص٢٢٩.

(٨١) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص٢٨٧.

(٨٢) ابن الأبار: التكملة، القسم الأول من الجزء المفقود، ص٨٤، عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص١٠٩-١١٠.

(٨٣) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص١٨٠-١٨١.

(٨٤) ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، الطبعة الثانية ص٥٣ من مقدمة المحقق.

(٨٥) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، دارالغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧، الطبعة الأولى، ص١٩٢.

(٨٦) الشناق: هو الحبل الذي تربط به الكتب.

(٨٧) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص١٩٧.

(٨٨) ابن الأبار: التكملة، الجزء الرابع، ص١٦، ابن القاضي: جذوة

الاقتباس، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٣، الجزء الثاني، ص٥٠٠-٥٠١.

(٨٩) ابن عساكر، ابن خميس: أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص٢٧٨، عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص١١٢.

(٩٠) ابن بشكوال: الصلة، القسم الثاني، ص٣٠٩-٣١١، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٩١) المقري: نفح الطيب، المجلد الثالث، ص٨٢، ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ص٢١٥.

(٩٢) ابن الأبار: التكملة، الجزء الثاني، ص٥٢.

(٩٣) سامية مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس، ص٥٠.

(٩٤) ابن القطان: نظم الجمان، ص٥٢ من مقدمة المحقق.

(٩٥) حامد الشافعي: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٦٩.

(٩٦) هالة شاكر: الوراقة والوراقون، ص٢٢٠-٢٢١، ذكر البعض دور المحتسب في سوق الكتب هو منع الغش والتدليس أو الخروج عن القواعد المتبعة في السوق. سيف المريخي: تجارة الكتب عند العرب المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، العدد الخامس ٢٠٠٧، ص٢٤.

(٩٧) ابن الأبار: كتاب التكملة، ص١٠٩.

(٩٨) ابن الأبار: كتاب التكملة، الجزء الأول، ص٣١٢.

(٩٩) حامد الشافعي: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٧٠-٧١.

(١٠٠) ابن عطية: فهرسة ابن عطية، ص٤٧.

(١٠١) ابن هذيل: تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الأندلس، تحقيق عبد الإله أحمد النبهان، محمد فاتح صالح، مركز زايد للتراث، الإمارات ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى، ص١٥، من مقدمة المحقق.

(١٠٢) الونشريسي: المعيار الجزء السادس، ص٢٧٠.

(١٠٣) الونشريسي: المعيار، الجزء السادس، ص٢٧٠، الجزء التاسع، ص٥٩٩.

(١٠٤) الونشريسي: المعيار، الجزء الخامس، ص٢٧٤-٢٧٥.

(١٠٥) الونشريسي: المعيار، الجزء السادس، ص٧٠، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٥٥.

(١٠٦) ابن رشد: مسائل أبي الوليد بن رشد، المجلد الثاني، ص٨٣٢، الونشريسي: المعيار، الجزء السادس، ص٢٠٣، ٥٩.

(١٠٧) الونشريسي: المعيار، الجزء السابع، ص٣٣٧، ٣٤٠.

(١٠٨) الونشريسي: المعيار، الجزء السابع، ص٣٤٠، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٩٣.

(١٠٩) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٤٣-٢٤٤.

(١١٠) قام بثورة على الموحدين في أواخر أيامهم بشرق الأندلس عام ٦٢٥هـ، وحكم الأندلس وجاهد النصارى لكنه هزم ومقته الناس ولقبوه بالمحروم وتوفي عام ٦٣٥هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الثالث والعشرون، ص٢٠-٢٢.

(١١١) المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني، ص٣٢٩، بالنثيا: تاريخ الفكر، ص٢٤٣، رضا مقبل: تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، المنوفية ٢٠٠١، ص١٥٨-١٥٩.

(١١٢) ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص١٧٨-١٨٠، لكننا لا نؤيده فيما ذهب إليه من أن ذلك الكم الهائل من الكتب لا يعني أن أهل الأندلس أكثر شعوب العالم ثقافة وبرر قوله بأن امتلاك شعب ما لكتب كثيرة لا يتطلب بالضرورة درجة في رقي التعليم، ونؤكد أن كمية الكتب ورواجها دليل على رقي المستوى الثقافي لأي شعب من الشعوب وأن للكتاب أهمية كبيرة في الثقافة وقلة الكتب أو وفرتها تؤثر على إنتاج وثقافة العلماء. للمزيد راجع عبد الله كنون: أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر، مجلة معهد المخطوطات العربية العدد التاسع، الجزء الأول، ص٤٧ وما بعدها.

(١١٣) ابن بشكوال: الصلة، القسم الأول، ص٨٨.

(١١٤) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس، ص٤٤٣-٤٤٤.

(١١٥) ربحي عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ص٨٥.

(١١٦) ابن حيان: المقتبس من أخبار الأندلس، تحقيق، محمود علي مكي، ص٢١.

(١١٧) M, hammad Benaboud: Sevilla en el siglo x1, el reino Abbadi de Sevilla (1023-1091), Sevilla, 1992, p.90-95.

(١١٨) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس، ص٩٥-٩٦.

(١١٩) ابن الأبار: التكملة، الجزء الأول، ص١٢٦-١٢٧.

(١٢٠) تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢٨٨-٢٨٩.

(١٢١) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص٢٧٧-٢٧٨، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، ص١٠٥، ابن الخطيب: الإحاطة، الجزء الأول، ص٢٥٩-٢٦٠، المقري: نفح الطيب، المجلد الخامس، ص٧٨.

المحكمة العليا الهندية تشدد النكير على الإعدام بدون محاكمة وحراس البقرة المزعومين

قالت لجنة مكونة من ثلاثة قضاة المحكمة العليا برئاسة قاضي القضاة: لايسع أحدا أن يتلاعب بالقانون، والحيلولة دون وقوع مثل هذه الأحداث تقع مسؤوليتها على عاتق الحكومة المحلية

بقلم: **مساعد التحرير**

دهلي الجديدة (الوكالات):

حمَّلت المحكمة العليا الهندية مسؤولية كبح جماح العنف باسم الحفاظ على البقرة-الحكومات المحلية، وقد استكملت بذلك إجراءات الدعوى المرفوعة إليها بضرورة إصدار إرشادات و توجيهات خاصة بالحيلولة دون وقوع حالات العنف هذه. وستقوم المحكمة بإصدار الحكم فيها. وحذرت اللجنة المكونة برئاسة قاضي القضاة بشدة من تلاعب أحد بالقانون، وقالت اللجنة: إن استتباب الأمن مسؤولية الحكومة المحلية. وقال قاضي قضاة المحكمة: إن الحيلولة دون وقوع هذه الحالات من مسؤوليات الحكومة المحلية، وستقوم المحكمة بإصدار توجيهات مفصلة خاصة بالتغلب على حالات العنف على أيدي حراس البقرة المزعومين.

وقالت اللجنة وهي تنظر في القضية المرفوعة إليها في هذا الصدد: إن القتل باسم الحفاظ على البقرة يشكل في الواقع العنف على أيدي مجموعة من الناس، وهو جريمة.

والجدير بالذكر أن المحكمة العليا كلفت الولايات الهندية كلها اتخاذ إجراءات صارمة ضد حالات العنف باسم الحفاظ على البقرة في ٦/سبتمر الماضي. بالإضافة إلى ضرورة تعيين أحد الضباط القدامى ضابطا خاصا به مسؤولًا عنه خلال أسبوع واحد، واتخاذ إجراءات صارمة سريعة ضد الضالعين في مثل هذه الجرائم.

ولايعزبن عن البال أن القتل بدون محاكمة ارتفعت حالاته في الأيام الأخيرة في مختلف أنحاء البلاد، ولم يتوقف ذلك عند قتل المتهمين بحيازة لحوم البقرة أو حملها أو أكلها؛ بل تجاوزت إلى القتل بدون محاكمة بتهمة اختطاف الأطفال وما إلى ذلك، مما أثار قلقًا شديدًا في الأوساط الهندية، التي تطالب بالتغلب عليها قبل أن يتسع الخرق على الراقع.

(صحيفة «انقلاب» الأردية اليومية، دهلي الجديدة (ميروت)، ص١، السنة:٦، العدد: ١٥٧، الأربعاء: ١٩/شوال ١٤٣٩هـ الموافق ٤/يوليو ٢٠١٨م).

❋ ❋ ❋

استنكار عنيف لاستقبال الضالعين في جريمة القتل بدون محاكمة على أيدي مجموعة متطرفة

وزير في الحكومة المركزية الهندية يستقبل الضالعين في مثل هذه الجريمة ثم يبرئ نفسه

دهلي الجديدة:

يستمر الاستنكار لما قام به وزير في الحكومة المركزية من استقبال الضالعين في القتل دون محاكمة، وتشتد المطالبة بضرورة إقالته من المنصب رغم أن الوزير برأ نفسه من الاتهام بعد ما تعرض لانتقاد لاذع من كل جانب. وقال: إنه يود إنزال العقوبات الرادعة على الضالعين في القضية، ولايسمح لأحد بالتلاعب بالقانون.

قال قيادي في حزب المؤتمر: من الخطورة بمكان أن يتم استقبال المحكوم عليهم بالعقوبة بمجرد إطلاق سراحهم على كفالة، وخاصة على يد أحد الوزراء في منصبه. وأضاف قائلا: إن الوزير عليه أن يدرك أن هؤلاء ليسوا مجرد متهمين في قضية؛ بل أصدرت المحكمة الحكم عليهم بالعقوبة. فالوقوف بجانبهم يشكل خطرًا شديدًا. وعليه أن يتوب من فعلته الشنيعة هذه.

والجدير بالذكر أن المحكمة المحلية في ولاية «جهارا كهاندا» أصدرت الحكم بالعقوبة على عدد من المتهمين بالقتل بدون محاكمة في الولاية المذكورة، واستمرت المحاكمة عدة شهور ثم جاء قرار المحكمة هذا بالعقوبة في حق الضالعين في القضية. ثم أصدرت المحكمة العالية في الولاية بالإفراج عنهم بالكفالة.

(صحيفة «انقلاب» الأردية اليومية، دهلي الجديدة (ميروت)، ص١، السنة:٦، العدد:١٦١، الأحد: ٢٣/شوال ١٤٣٩هـ الموافق ٨/يوليو ٢٠١٨م).

* * *

مسلم يدعى «توحيد» قتِلَ بتهمة حيازة لحوم البقرة؟

رانتشي:

يكاد يختنق المدعو/محمد خليل الأنصاري (٦٥عاما) وهو يتحدث عن مقتل ابنه المدعو/ توحيد، ويقول: خرج من البيت بعد صلاة الفجر، يقول: أنا متجه إلى المكان الفلاني و سأعود قريبا، وكنا نترقبه إذ بلغنا نبأ العثور على جثته، وقيل لنا: تتناقل مواقع التواصل الاجتماعي صورة لجثته. فخفق قلبي خفقانًا شديدًا. هَبْ أن ولدي اكتسب خطيئةً، فأنى لهم أن يقتلوه ضربًا من غير هوادة.

وتقول تفاصيل الحادث: إن جثة توحيد أنصاري وجدت على مسافة قليلة من خط السكة الحديدية بقرية «شترفور» من مديرية «رام كره»، بولاية «جهارا كهاندا» الهندية، كما عثر على سيارته النارية على بعد نصف كيلو منها عند مفترق الطريق. زعموا أن بعض المارة دعموا دراجته النارية مما أدى إلى فقدانه السيطرة عليها وبالتالي خروره على الطريق. فانتشر اللحم المحظور من

داخل الدارجة.

وسجل والد الضحية البلاغ في الشرطة في ١٩/يونيو، أفاد فيه بأن ولده قُتِل تحت خطة مدروسة. والناظر إلى الجثة يتبين أنه ضرب ضربًا مبرحًا وصُبّ الحميم على جسده.

أفادت شرطة المنطقة بأنها تلقت بلاغًا عن سقوط الدراجة النارية واللحوم على الشارع في الساعة التاسعة صباحًا، فاتخذت الشرطة الإجراءات اللازمة، وتم إرسال اللحوم إلى المختبر للفحص عما إذا كان لحوم البقرة من عدمه. وتم العثور على جثة على خط السكة الحديدية بعد ذلك بثلاث ساعات.

يقول شقيقه الأوسط المدعو/نوشاد أنصاري – الذي يحترف المحاماة–: إنه رأى صورة جثة شقيقة على الـ«واتس إيب» فبدأ بالاتصال بضابط الشرطة، ثم وصلوا إلى مركز الشرطة، فقيل لهم: إنه تم إرسال الجثة إلى المستشفى للتشريح، فتوجهوا إليه وتعرفوا على جثته. وتم تدفينه في وقت متأخر من الليلة في ١٩/يونيو. فسَادَ القريةَ جو من الحزن والكآبة منذ ذلك الحين، وحاولنا جاهدين أن نحافظ على الوضع الطائفي الآمن. ولا نريد إلا الانتصاف عن طريق الإجراءات القانونية.

ويضيف نوشاد: إن شقيقه كان يستقطر العيش له ولعائلته المكونة من زوجة وبنتين وابن واحد، وقد بلغ منهم الأسى والكآبة كل مبلغ. وإذا كان شقيقه اكتسب خطيئة فهلا وُكل أمره إلى الشرطة فتتخذ الإجراءات اللازمة حياله. وهلا بحثت الشرطة عن الراكب بعد ما عثرت على الدراجة واللحوم. ولو أنها أخذت الحذر في الأمر لَوَقَتْ شقيقه شرا مستطيرًا.

وقال والد الضحية وهو يقف بجانب نوشاد بصوت متعثر: ليت شعري ما الذي يدفع القلب إلى القول بأن عليم الدين قُتِلَ بدون محاكمة على الشارع، وقتل ابنُه بعد سحبه إلى الأيكة. ويحتمل أن ولده اختفى خوفًا على نفسه من الناس، فتبعوه حتى أدركوه في الأيكة واجتمعوا على قتله.

والجدير بالذكر أنه تم قتل عليم الدين بدون محاكمة في قلب مدينة «رام كره» بتهمة حمل لحوم البقرة على أيدي مجموعة من الناس. وأصدرت المحكمة الحكم بالسجن مدى الحياة في حق ١١ متهما في القضية. ولايزال قانون حظر قتل البقرة منفذا من ذي قبل في ولاية «جهارا كهاندا».

يقول أهل الضحية: رغم مرور أكثر من ٢٤ ساعة على الحادث لم يتوجه الشرطة إلى بيتهم أو إلى القرية للتحقيق في القضية، في حين زار شقيق الضحية: نوشاد ومعه جماعة من الناس ضابط الشرطة في المنطقة، وطالبوه بضرورة حل القضية بكل شفافية والانتصاف لهم. وتنفي الشرطة أن قتل توحيد يشكل قتلا بدون محاكمة. وتتصدر ولاية «جهارا كهاندا» قائمة القتل بدون محاكمة في الشهور

الأخيرة مما يثير شكوكا في الأمر.

(صحيفة «خبرين» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص٣، السنة:٧، العدد:٣٤٥، الأحد ٩/شوال ١٤٣٩هـ الموافق٢٤/ يونيو ٢٠١٨م).

* * *

تشهد الهند (٢٩٢٠) اضطرابا طائفيا خلال أربع سنوات ماضية

تقرير وزارة الداخلية ينفي مزاعم وزير في الحكومة المركزية ثلاثة اضطرابات موسعة، أسفرت الاضطرابات عن مقتل (٣٨٩) شخصا، و(٨٨٩٠) مصابا

دهلي الجديدة (الوكالات)

قال وزير في الحكومة المركزية: لم تشهد الهند خلال أربع سنوات اضطرابًا طائفيًّا على نطاق موسع، غير أن إحصائيات الحكومة المركزية نفسها تنفي هذه المزاعم؛ فقد أفاد تقرير صادر عن وزارة الداخلية بأن الهند شهدت ثلاثة اضطرابات طائفية موسعة خلال عامي ١٧-٢٠١٦م. فشهدت منطقة «بشيرغات» بمديرية «٢٤ برغنه» من ولاية بنغال الغربية عام ٢٠١٧م اضطرابًا على نطاق موسع، كما شهدت منطقة أخرى- حاجي نغر- في الولاية نفسها اضطرابًا موسعًا عام ٢٠١٦م. وفي عام ٢٠١٤م شهدت مدينة سهارن فور من ولاية أترابراديش اضطرابًا طائفيًّا موسعًا مماثلا. وأما عام ٢٠١٥م فإنه العام الوحيد الذي لم يشهد اضطرابًا طائفيًّا.

ويجدر الإشارة إلى أن الاضطراب الموسع هو ما ذهب ضحيتها مالا يقل عن خمسة أشخاص، وأصيب فيه عشرة أشخاص بجروح. وأما الاضطرابات التي تقل ضحاياها عن ذلك فإنها تصنف «اضطرابًا هاما». وشهدت الهند حتى نهاية عام ٢٠١٧م الماضي (٢٩٢٠) اضطرابًا طائفيًّا، ذهب ضحيتها (٣٨٩) شخصًا، وأصيب (٨٨٩٠) شخصًا. هذه التفاصيل تقدمت بها وزارة الداخلية إلى مجلس الشعب الهندي.

وشهدت ولاية أترابراديش- أكثر الولايات الهندية كثافة سكانية- اضطرابات طائفية أكثر من ولاياتها الشقيقة؛ فقد بلغ عددها (٦٤) اضطرابا طائفيا، ويليها ولاية كرناتكا التي شهدت (٣٩٧) اضطرابا طائفيا. وأما ولاية مهاراشترا فقد شهدت (٣١٦) اضطرابا طائفيا. وضحايا الاضطرابات الطائفية في ولاية أترابراديش أكثر من غيرها من الولايات، فقد أسفرت الاضطرابات عن مقتل (١٢١) شخصًا في الولاية خلال ١٧-٢٠١٤م، بينما بلغ عدد الضحايا في ولاية كرناتكا (٣٦) ضحية، وفي ولاية راجستهان (٣٥) ضحية.

(صحيفة «انقلاب» الأردية اليومية، دهلي الجديدة (ميروت)، ص١، السنة:٦، العدد:١٦٣، الثلاثاء ٢٥/شوال ١٤٣٩هـ الموافق١٠/يوليو ٢٠١٨م).

* * *

إصدارات حديثة

بقلم: **مساعد التحرير**

أصدرت أكاديمية شيخ الهند، التابعة للجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، الهند في السنوات الأخيرة عدة أسفار غالية نافعة للطلاب والباحثين في الحديث وعلومه، أهم هذه الأسفار مايلي:

١- **الحديث الحسن في جامع الترمذي**: دراسة وتطبيق (في مجلد واحد في٧٤٤ صفحة) بتقديم الشيخ مرغوب الرحمن -رحمه الله- رئيس الجامعة سابقا، وتقريظ فضيلة الشيخ رياست علي البجنوري -رحمه الله-، وإعداد طلبة قسم التخصص في الحديث النبوي الشريف، وإشراف العالم الناقد الشيخ نعمت الله الأعظمي، والشيخ حبيب الرحمن الأعظمي والأستاذ عبد الله المعروفي أساتذة القسم.

٢- **حديث حسن صحيح في جامع الترمذي**: دراسة وتطبيق (ثلاثة مجلدات: المجلد الأول:٦٨٠ صفحة، والمجلد الثاني في ٦٢٤ صفحة، والمجلد الثالث في٦٧٢ صفحة) بتقديم رئيس الجامعة فضيلة الشيخ مرغوب الرحمن -رحمه الله-، وكلمة الناشر بقلم صاحب الفضيلة الشيخ بدر الدين أجمل – عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم/ديوبند- وكله من إعداد طلبة قسم التخصص في الحديث النبوي الشريف وإشراف النابغة الناقد الشيخ نعمت الله الأعظمي- من كبار أساتذة الجامعة- والأستاذ عبد الله المعروفي.

٣- **حديث غريب في جامع الترمذي**: دراسة وتطبيق(مجلد واحد في ٧٤٤صفحة) بتقديم فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني رئيس الجامعة، وكلمة النشر بقلم فضيلة الشيخ بدر الدين أجمل علي القاسمي – عضو المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ ديوبند- وإعداد طلبة قسم التخصص في الحديث الشريف، وإشراف العالم الناقد فضيلة الشيخ نعمت الله الأعظمي، والأستاذ عبد الله المعروفي.

٤- **حسن غريب في جامع الترمذي**: دراسة وتطبيق: (مجلدان: المجلد الأول في ٦٠٨ صفحة، والمجلد الثاني في ١٢٣٢ صفحة) بتقديم فضيلة الشيخ مرغوب الرحمن -رحمه الله- رئيس الجامعة سابقا، وإعداد طلاب قسم التخصص في الحديث الشريف بالجامعة، وإشراف فضيلة الشيخ نعمت الله الأعظمي، وفضيلة الشيخ أبو عبيد حبيب الرحمن الأعظمي، والأستاذ عبد الله المعروفي.

تشكل هذه الأسفار الغالية عصارة جهود مضنية بذلها طلاب التخصص في إعدادهاو أساتذة القسم في الإشراف على أعمالهم، وهي أعمال فريدة من نوعها، جديرة بالاقتناء والاستفادة منها في مجال الحديث وعلومه. بارك الله في جهودهم وتقبل مساعيهم.

* * *

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ١٠٨

وهذه الصفة الجميلة تنشأ عن تربية الوالدين والبيئة والأسرة، فالزوج المُرَبَّىٰ والزوجة المُرَبَّاة يكونان أقدر على معايشة الحياة الزوجية بنحو يُصَنَّف دائمًا طيبًا وسعيدًا.

وقد كان الوالدان يهتمان في الماضي بتربية البنين والبنات وتوعيتهم بالمبادئ التي إذا أخذوا بها عاشوا حياة زوجية كلها توافقٌ وسعادةٌ وخيرٌ ورضا وارتياحٌ نفسي مُتَنَاهٍ وسكينة قلبية لا حدود لها.

وعَلَّمَ الإسلام الزوجين أدبيات التعامل بينهما حتى يظلا حَظِيَّين بالسعادة الزوجية وبعيدين كل البعد عن الشقاء الزوجي. وأول شيء ركز الإسلام عليه أن يكون الزوجان مطيعين لله ولرسوله -ﷺ- في حياتهما الزوجية؛ لأن ذلك يحلّ جميعَ المشاكل الناتجة، ويحول أولًا دون حدوثها. إنه المفتاح الرئيس الذي يفتح كلَّ باب مُغْلَق.

وعَلَّمَ الإسلام أن يكون الزوج على الصفات التي تُحِبُّها المرأةُ وتريدها في زوجها فيكون حليمًا كريمًا، حَسَنَ الأخلاق، جميلَ الشِّيَم، واسعَ الأفق، ثاقب النظر، حادّ البصر، صبورًا شكورًا؛ لأنها تريده حاميًا لها، منفقًا عليها، وتريده من تركن إليه، فإذا وَجَدَتْ فيه هذه الصفات وغيرها مما يليق بالرجل، سكنت إليه، وارتاحت، و وَدَّتْه بقلبها، وأُعْجِبَتْ به الإعجابَ كُلَّه وآثَرَتْه على كل شيء في الحياة، و وَثِقَت به سندًا لها وعمدةً لا حاجة بها إلى غيره؛ لأنها تجد فيه السكَنَ والراحةَ والسعادةَ والطمأنينةَ. يجب أن تتكامل فيه صفات الزوج العقلية والجسمية والاجتماعية والنفسيّة المتعلقة بالمهمة التي نيطت به قَوَّامًا على الزوجة، سيِّدًا لها، مسؤولًا عن الإنفاق عليها ومعاشرتها بالمعروف.

كما عَلَّمَ أن تكون الزوجة متكاملة من حيث الصفات العقلية والجسمية والاجتماعية والنفسية منوطةً بالمهمة التي أُلْقِيَتْ على كاهلها، وأن تكون مطيعة له على الإطلاق في إطار الشريعة الإسلامية؛ لأن الإسلام أعلى درجةَ الزوج على الزوجة. قال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لو كنتُ آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرتُ المرأةَ أن تسجد لزوجها» (الترمذي عن أبي هريرة: ١١٥٩) وقد كان من الأسباب الأولى الرئيسة المُؤَدِّيَة إلى الشقاء الزوجي عدمُ تطبيق المنهج الإسلامي في الزواج والحياة الزوجية، وبالتالي عدم مراعاة الزوجين أحدهما لحقوق الآخر.

وقد قال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ينصح المرأة -كما روت أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية-: «اِنْصَرِفِي أيتها المرأة وأَعْلَمِي مَنْ خلفك من النساء أن حُسْنَ تَبَعُّلِ إحداكنّ لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته تعدل ذلك كله» (البزار في مسنده: ١٤٧٤). ومعنى «ذلك كله»: الجماعة والجمعة، وعيادة المرضى، واتباع الجنائز، والجهاد.

وقال ينصح الرجال: فيما رواه علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي -ﷺ-:

«خيرُكم خيرُكم لأهله، وأناخيرُكم لأهلي، ما أكرم النساءَ إلّا كريم؛ ولا أهانهن إلّا لئيم» (ابن

عساكر في تاريخ دمشق ١٣/٣١٣).

وفي هذا العصر الموبوء بالفتن تَعَوَّدَ الشبابُ أن يَتَزَوَّجَ مع فتيات حسناوات، ولا ينظر إلى دينهن ولا حسبهنّ ولا تربيتهنّ، مما أكثر الشرورَ والويلات، وعَمَّمَ الشقاق والخلافَ الزوجيَّ والتفككَ الأسريَّ. وقد نصح النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- قائلًا:

«تُنْكحَ المرأةُ لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك. (متفق عليه عن أبي هريرة: البخاري: ٥٠٩٠؛ و مسلم: ١٤٦٦).

وهناك حديث رواه الطبراني:

«من تزوج المرأةَ لجمالها أذلّه الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، ومن تزوجها لمالها أَفْقَرَه الله؛ فعليك بذات الدين، تَرِبَتْ يداك».

وكان العرب حريصين على أن تستجمع بناتُهم بصفة خاصّة ما يُحَبِّبُهُنَّ إلى أزواجهن وأهليهم، فيَحْظَينَ بالخير والسعادة، وتكون حياتهن عامرةً بالطمأنينة والارتياح القلبي والشبع النفسي الذي هو المطلوب من الزواج. وجاء الإسلام فهذّب هذه التعليمات والعادات وزادها حسنًا وبهاءً، فلو تَقَيَّدَ بها الزوجانُ اليوم كما تقيد بها العرب والمسلمون في الماضي لكانت حياتهما الزوجية سعيدةً بمعنى الكلمة كما كانت في الماضي.

لما حان أن تُزَفَّ «أُمُّ إياس» إلى زوجها: «الحارث بن عمرو» ملك كندة، خَلَتْ بها أُمُّها أُمَامَةُ بنت الحارث، وقالت توصيها:

«أي بُنَيَّةُ! إنّ الوصيةَ لو تُرِكَتْ لفضل أدب تُرِكَتْ لذلك منكِ؛ ولكنها تذكرة للغافل، ومَعُونَةٌ للعاقل.. ولو أن امرأةً اسْتَغْنَتْ عن الزوج لغِنَى أَبَوَيْها وشِدَّة حاجتهما إليها، كُنْتِ أغنى الناس عنه؛ ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ولهن خُلِقَ الرِّجَالُ.

«أي بُنَيَّةُ! إنكِ فارقَتِ الجَوَّ الذي منه خرجتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه درجتِ، إلى وَكرٍ لم تَعْرِفِيه، وقرين لم تَأْلَفِيه؛ فأصبح بمُلْكِه عليك رقيبًا ومليكاً؛ فكوني له أَمَةً يَكُنْ لك عبدًا وَشِيكًا.

«أي بُنَيَّةُ! احْمِلِي عَنِّي عَشْرَ خِصَال تكن لك ذخرًا وذكرًا: الصحبةَ بالقناعة، والمُعَاشَرَةَ بحسن السمع والطاعة، والتعهّدَ لموقع عينه، والتفقدَ لموضع أنفه، فلا تَقَعْ عيناه منكِ على قبيح، ولا يَشُمَّ منكِ إلا أطيبَ ريح.

«والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْن، والماءُ أَطْيَبُ الطِّيبِ المفقود؛ والتَّعَهُّدُ لوقت طعامه، والهدوءُ عنه عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوع مَلْهَبَةٌ، وتنغيصَ النوم مَغْضَبَةٌ؛ والاحتفاظُ ببيته وماله، والإِرْعَاءُ على نفسه وحَشَمِه وعِيَالِه؛ فإن الاحتفاظَ بالمال حُسْنَ التقدير، والإرعاءُ على العِيَال والحَشَم حسنُ التدبير؛ ولا تُفْشي له سِرًّا، ولا تَعْصِي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سِرَّه لم تَأْمَنِي غَدْرَه، وإن عَصَيْتِ أَمرَه أَوْغَرْتِ صدرَه؛ ثم اتَّقِي مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحًا، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحًا؛ فإن الخصلةَ الأولى من التقصير، والثانية من التكدير؛ وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا يكن أشدَّ ما يكون لكِ إكرامًا، وأشدَّ ما تكونين له مُوَافَقَةً يَكُنْ أطولَ ما تكونين له مُرَافَقَةً.

«واعلمي أنكِ لا تصلين إلى ما تُحِبِّين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاكِ وهواه على هواكِ، فيما أحببتِ وكَرِهْتِ. والله يخير لكِ.

إن الأعرابية زَوَّدَتْ ابنتَها لدى زفافها بأربع عشرة نصيحة كلها واقعية ومنطقية، إذا أخذت بها فتاة نحو زوجها وفي بيته فإن حياتها في بيته ستكون أجمل ما تكون، ولا تتنغص في يوم من الأيام، ولا تواجه مشكلة، ولا تتعرض لتعقيد، ولا تُقَابَلُ بتكدير بإذن الله.

فقد أوصتها بالقناعة والطاعة، والتجمل والتعطر، وتقديم الطعام في وقته، وتوفير البيئة الهادئة المساعدة على النوم، والتدبير لأمواله، وحسن تربية أولاده، وعدم عصيان أمره، وعدم إفشاء سِرِّه، وعدم الفرح عند حزنه، وعدم الحزن عند فرحه، والإكثار من إعظامه واحترامه، وإيثار رضاه على رضاها وهواه على هواها.

إن الأعرابية هَدَتْ بنتَها إلى المفتاح الذكيّ الذي تفتح به جميعَ أقفالَ الحياة الزوجيّة ومغاليق الحياة العامة.

وقد ظَلَّ المسلمون والعربُ يهتمون بموضوع توجيه البنات والبنين عند الزواج بما يجعلهم يعيشون الحياةَ الزوجيّةَ صافيةً من كل كدورة، قِوَامُها التوافق والانسجام، والسعادة والوئام، ففي العصر الحاضر، أهدى الدكتور إبراهيم محمد السيد الفقي المصري رحمه الله (١٣٦٩-١٤٣٢هـ = ١٩٥٠-٢٠١٢م) إلى ابنته عند زواجها من الوصية ماعُدَّ من أجمل الوصايا في الكتابات المعاصرة، فقد قال:

«ابنتي! اليوم تنتقلين إلى يدين غريبتين.. هذه الليلةَ سيُظِلُّ لكِ سقفٌ غريب في بيت رجل غريب. في هذه الليلة سأقف فوق سريركِ النظيف في بيتي، فأجده خاليًا من ثنايا شعركِ الأسود الذي يفوح منه عطرُ الطهارة فوق وسادتك البيضاء، وقد تنهمر الدموعُ من عيني لأول مرة في حياتي، فاليوم يغيب عن عيني وجهُ ابنتي؛ ليُشْرِق في بيت الرجل الغريب الذي لا أعرفه حقَّ المعرفة خيرَه من شرّه. اليوم ينتقل شعوري وتنتقل أحاسيسي إلى أهل أمّكِ يومَ سَلَّمُوني ابنتَهم وهم يذرفون الدموعَ، كنتُ أظنّها دموعَ الفرح أو دموعَ تقاليد أهل العروس، ولم أعرف إلا اليومَ أن ما كان يَنْتَابُهم هو نفسُ ما ينتابني الآنَ وأن مايُعَذِّبُني هذه الساعةَ كان يُعَذِّبهم، وأنّ انقباض قلبي في هذه اللحظة وأنا أُسَلِّمُكِ إلى رجل غريب كان يُدَاهِمُهم أيضًا. وصَدِّقيني – يا بنيتي – إنه لو كان لي، يومَ تزوجتُ أمّكِ، شعورُ الأب، لأَفْنَيْتُ عمري في إسعادها، كما أُحِبّ أن يُفْنِي زوجكِ عمرَه في سبيل إسعادكِ.

ابنتي! في هذه اللحظة أَنْدَمُ على كل لحظة مَضَتْ ضايقتُ أُمَّكِ فيها. اليوم نحن في الحاضر والمستقبل قادمون، أَتَمَثَّلُكِ واقفةً أمامي تقولين: «زوجي يضايقني يا أبي، فماذا أفعل؟». أسأل الله أن لا ينتقم مني بكِ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ. والآن دَعِينِي أَضَعْ أمام عَيْنَيْكِ الحلوتين بعضَ النقاط التي يحسب الرجل أنها تُوَفِّر له السعادةَ في بيته الزوجي. الرجلُ – يا صغيرتي – يحب الأمجادَ ويتظاهر بالثراء والنجاح، حتى ولو لم يكن ثريًّا قطُّ؛ فلا تُحَطِّمِي فيه

هذه المظاهرَ؛ بل وَجِّهيه بحكمتكِ ولطفكِ وحسن تصرفكِ. والرجلُ – يا فلذةَ كبدي – يفاخر دائمًا بأن زوجته تُحِبُّه؛ فاحْرِصِي على إظهار حُبِّكِ أمام أهله بصفة خاصّة. والرجل – قرةَ عيني – يفخر أمام أهله بأنه قد انْتَقَىٰ زوجةً تُحِبُّهم وتُكْرِمُهُم؛ فَأَكْرِمِي أهلَ زوجكِ، واسْتَقْبِلِيهم أحسنَ استقبال.

وبعد – يا بنيتي! – إذا ثار زوجكِ فَاحْتَضِنِي ثورتَه بهدوء، وإذا أخطأ دَاوِي خَطَأَه بالصبر، وإذا ضاقتْ به الأيامُ فلْيَتَّسِعْ صدرُكِ لِتُسْعِفِيه على النهوض.

ولا تَنْسَيْ – يا عمري! – أنكِ إكليلٌ لزوجك، بيدكِ أن يكون مُرَصَّعًا بالدرّ والياقوت على هامته، أو أن يكون من الشوك يُدْمِي رأسَه ورأسَ أبيك، إن لم تُحافِظِي على شرفكِ له دون سواه.

بُنَيَّتِي! كوني له أرضًا مُطِيعة يَكُنْ لكِ سماءً، وكوني له مِهَادًا يَكُنْ لكِ عِمَادًا، واحفظي سمعَه وعينَه فلا يَشُمَّ منكِ إلّا طيبًا، ولا يَسْمَعْ منكِ إلا حَسَنًا، ولا يَنْظُرْ إلا جميلًا.

وكوني كما نظم شاعر لزوجته:

خُذِي مِنّي الْعَفْوَ تَسْتَدِيمي مَوَدَّتِي
ولا تَنْطِقِي فِي ثَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ
و لا تُكْثِرِي الشَّكْوَىٰ فَتَذْهَبَ بِالْهَوَىٰ
فيابَاكِ قَلْبِي والْقُلُوبُ تَقَلَّبُ

وأخيرًا أسأل ربي أن يرعاكِ برضاه وأن يستقرّ لكما كل حُبِّي.

وقال يوصي ابنه عند زواجه:

أي بُنَيَّ! إنّك لن تنال السعادةَ في بيتك إلا بعشر خصال تمنحها زوجَك فاحفظها عني واحرص عليها:

أما الأولى والثانية: فإن النساء يحببن الدَّلَالَ ويحببن التصريحَ بالحب؛ فلا تَبْخَلْ على زوجتكَ بذلك؛ فإن بَخِلْتَ جعلتَ بينك وبينها حجابًا من الجفوة ونقصًا من المودة.

وأما الثالثة:

فإن النساء يَكْرَهْنَ الرجلَ الشديدَ الحازمَ، ويُحْبِبْنَ الرجلَ الضعيفَ اللين؛ فاجعل لكل صفة مكانَها؛ فإنه أَدْعَىٰ للحبّ، وأَجْلَبُ للطمأنينة.

وأما الرابعة:

فإن النساءَ يُحْبِبْنَ من الزَّوَج ما يحب الزوجُ منهن من طيب الكلام، وحسن المنظر، ونظافة الثياب، وطيب الرائحة؛ فكن في كل أحوالك كذلك، وتَجَنَّبْ أن تقترب منها تريدها وقد بَلَّلَ العَرَقُ جَسَدَك، وأَدْرَنَ الوَسَخُ ثيابَك؛ فإنك إن فعلتَ ذلك جعلتَ في قلبها نفورًا، وإن أَطَاعَتْك. فقد أطاعك جسدُها ونفر منك قلبُها.

وأما الخامسة:

فإن البيتَ مَمْلَكَةُ الأنثى، وفيه تشعر أنها مُتَرَبِّعَة على عرشها وأنها سيِّدة فيه؛ فإياكَ أن تهدم هذه المملكةَ التي تعيشها، وإيّاك أن تحاول أن تزيحها عن عرشها هذا؛ فإنك إن فعلتَ نازعتَها ملكَها، وليس مَلِكٌ أشدّ عداوة ممن ينازعه ملكَه، وإن أظهر له غير ذلك.

وأما السادسة:

فإن المرأة تحب أن تكسب زوجَها ولا تَخْسَرَ أهلَها؛ فإيّاك أن تجعل نفسَك مع أهلها في ميزان

واحد، فإما أنتَ وإما أهلها، فهي وإن اختارتْك على أهلها، فإنها ستبقى في كَمَد تُنْقَل عدواه إلى حياتك اليومية.

وأما السابعة:

فإن المرأة خُلِقت من ضِلْع أَعْوَجَ. وهذا سِرُّ الجمال فيها وسِرُّ الجذب إليها، وليس هذا عيبًا فيها «الحاجبُ زَيَّنَه العِوَجُ» فلا تحمل عليها إن هي أَخْطَأَتْ حملةً لا هوادةَ فيها تحاول تقييم المُعْوَجّ فتكسرها وكسرُها طلاقُها، ولا تتركها إن هي أَخْطَأَتْ حتى يزداد اعْوِجَاجُهَا وتقوقع على نفسها فلا تلين لك بعد ذلك ولا تستمع إليك؛ ولكن كُنْ دائمًا معهابين بين.

وأما الثامنة:

فإن النساء جُبِلْنَ على كفر العشير وجُحْدان المعروف، فإن أحسنتَ إلى إحداهن دهرًا ثم أَسَأْتَ إليها مرةً قالت: ما وجدتُ منك خيرًا قطُّ؛ فلا يَحْمِلَنَّكَ هذا الخلقُ على أن تكرهها وتنفر منها؛ فإنك إن كرهتَ منها هذا الخلقَ رضيتَ منها غيره.

وأما التاسعة:

فإن المرأة تمرّ بحالات من الضعف الجسدي والتعب النفسي، حتى إن الله سبحانه وتعالى أسقط عنها مجموعةً من الفرائض التي افترضها في هذه الحالات، فقد أَسْقَطَ عنها الصلاةَ نهائيًّا في حالة الحيض وفترة النفاس، وأَنْسَأَ لها الصيامَ خلالَهما، حتى تعود صحتُها ويعتدل مزاجُها؛ فكن معها في هذه الأحوال كما خَفَّفَ اللهُ سبحانه وتعالى عنها فرائضَه أن تُخَفِّف عنها طلباتِك وأوامرك.

وأما العاشرة:

فاعلم أن المرأة أسيرة عندك فارحم أَسْرَها، وتَجَاوَزْ عن ضعفها، تكن لك خيرَ متاع وخير شريك. والسلام.

ومن روائع الوصايا في العصر الحديث وصية الشاعرة المصرية «لورا الأسيوطي» (وُلِدت في مدينة «المحلة الكبرى» محافظة الغربية بمصر عام ١٣٤٤هـ /١٩٢٥م وتوفيت في القاهرة عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م. من دواوينها «مرفأ الذكريات» و«صيحة الشعوب» و«الزورق الحائر». ولها بعض القصص المترجمة إلى العربية من الفرنسية) لابنتها في قصيدة لهابعنوان «أخلاقيات الزواج»، وقد أهدتها الشاعرة إلى ابنتها «أحلام» وابنها «أشرف». وهي كما يلي:

مَا كَانَ أَسْعَدَنِي وقد سَاءَلْتِنِي
يَوْمًا وَلَمْ يَقْعُدْ بِكِ الإحْجَامُ
عَنْ سِرِّ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِيكِ مِنْ
حُبٍّ لَهُ بَعْدَ الزَّوَاجِ دَوَامُ
وَلَقَدْ أَجَبْتُكِ بِاخْتِصَارٍ يَوْمَهَا
وَلِمِثْلِ سِنِّكِ يَوْمَهَا أَحْكَامُ
وَالْآنَ إِذْ أَوْشَكْتِ أَنْ تَتَزَوَّجِي
كَأَخِيكِ و هُوَ الفَارِسُ الْمِقْدَامُ
أُسْدِي إِلَيْكِ مِنَ الفُؤَادِ نَصَائِحِي
مَا لِي سِوَى الْبَيْتِ السَّعِيدِ مَرَامُ
إِنْ شِئْتِ أَنْ يَبْقَى الزَّوَاجُ سَعَادَةً
فَلْتَذْكُرِي أَنَّ الزَّوَاجَ غَرَامُ
كُونِي لِزَوْجِكِ مِثْلَمَا هُوَ يَشْتَهِي
وَلْيَبْقَ بَيْنَكُمَا رِضًا وَ وِئَامُ

الزَّوْجُ طِفْلٌ فَوْقَ عَرْشٍ جَالِسٌ
وَمُرَادُهُ التَّعْظِيمُ و الإِكرامُ

أَنْتِ الرَّعِيَّةُ كُلُّهَا فِي مُلْكِهِ
وَالطَّاعَةُ الْعَمْيَاءُ مِنْكِ لِزَامُ

وَلَهُ القِيَادَةُ كُلُّهَا وبِكَفِّهِ
لَكِ يا رَعِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ زِمَامُ

لكِنَّهُ يُلْقِي إِلَيْكِ زِمَامَهُ
بِالْحُبِّ؛ فَهُوَ بِهِ لَدَيْكِ غُلَامُ

فِي الْحُبِّ سِرُّ السِّحْرِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ
فَعَلَىٰ قَوَاعِدِهِ الْحَيَاةُ تُقَامُ

كُونِي لَهُ زَوْجًا تُرِيهِ حَنَانَهَا
إنّ الْحَنَانَ بِغَيْرِهَا أَوْهَامُ

كُونِي شَرِيكَتَهُ الْأَمِينَةَ دَائِمًا
إِنَّ الْأَمَانَةَ لِلزَّوَاجِ قِوَامُ

ثِقَةُ الشَّرِيكِ ضَرُورَةٌ حَتْمِيَّةٌ
فُقْدَانُهَا لِكِلَيْكُمَا هَدَّامُ

وَطُمُوحُ زَوْجِكِ فِي يَدَيْكِ أَمَانَةٌ
هِيَ فِي ضَمِيرِكِ ذِمَّةٌ وَّ زِمَامُ

فِي ظِلِّ رُوحِكِ ما يَطِيبُ لِرُوحِهِ
إِذْ تَسْتَرِيحُ فَتُبْسَطُ الْأَجْسَامُ

فَلْتَبْقَ رُوحُكِ وَاحَةً فِيهَا لَهُ
ظِلٌّ مَدِيدٌ طَيِّبٌ وَّ طَعَامُ

وَلْيَبْقَ عُشُّكُمَا السَّعِيدُ مُنَسَّقًا
لِلْفَنِّ فِي تَنْسِيقِهِ إِسْهَامُ

يَأْوِي إِلَيْهِ بَعْدَ جَهْدٍ مُرْهِقٍ
فَإِذَا لَهُ فِيمَا حَوَاهُ جَمَامُ

بِتَجَاوُبِ الْأَفْكَارِ بَيْنَكُمَا لَهُ
فِي الْبَيْتِ حِينَئِذٍ يَطِيبُ مُقَامُ

وَتَفَنَّنِي مَا اسْطَعْتِ فِي إِرْضَائِهِ
فَرِضَاهُ فِيهِ الْعَزْمُ والْإِقْدَامُ

مَهْمَا تَكُونِي فِي الْحَيَاةِ ضَعِيفَةً
فَلَأَنْتِ فِي يَدِهِ عَصًا وَّ حُسَامُ

والضَّعْفُ لَا يَعْنِي التَّذَلُّلَ مُطْلَقًا
فَالذُّلُّ حَتَّىٰ لِلْقَرِينِ حَرَامُ

حَسْبُ الْقَرِينِ مِنَ الْقَرِينَةِ رِقَّةٌ
وصَرَاحَةٌ بِهِمَا السَّلَامُ يُقَامُ

مَا دُمْتِ فِي حِرْصٍ عَلَىٰ أَسْرَارِهِ
فَلِحِرْصِهِ حَتْمًا عَلَيْكِ دَوَامُ

وَتَبَادُلُ الْإِجْلَالِ بَيْنَكُمَا بِهِ
لَكُمَا لَدَىٰ كُلِّ الْأَنَامِ مَقَامُ

لَا تَسْمَعِي لِوِشَايَةٍ فِي حَقِّهِ
كُلُّ الْوُشَاةِ مُنَافِقُونَ لِئَامُ

تَلْكَ النَّصَائِحُ كُلُّهَا لَكِ سُقْتُهَا
وَمُنَايَ أَنْ تَتَحَقَّقَ الْأَحْلَامُ

وَ وَصِيَّتِي لَكِ أَنْ تَكُونِي دَائِمًا
مَعَ مَنْ هُوَ الْمُتَفَضِّلُ الْعَلَّامُ

مَنْ عَاشَ وَهْوَ مَعَ الْإِلَٰهِ حَيَاتُهُ
فَاللَّهُ كَافِلُهُ وَلَيْسَ يُضَامُ

(ديوان «الزورق الحائر» القاهرة، الهيئة العامّة المصرية للكتاب، ١٩٩٩م، ص:١٣).

ولم تكتفِ الشاعرةُ العربيّةُ بنصيحة ابنتها؛ بل أَعْقَبَتْها بقصيدة «وإلى قرينك» التي هي في الواقع تتمة لقصيدة «أخلاقيات الزَّوَاج». ففي هذه القصيدة تُخاطِب زوجَ ابنتها قائلةً له:

وإلىٰ قَرِينِـــــكِ إذْ أَزِفُ تَحِيَّتِـــــي
أُزْجِـــي رَجَـــاءً مَـــا بِـــهِ إِبْهَـــامُ
هُوَ فِي مَقَامِ أَخِيكِ «أَشْرَفْ» يَا ابْنَتِي
وَحَبِيبَتِـــــي يَـــا أَيُّهَـــا المِقْــــدَامُ
كُــنْ زَوْجَهَــا وصَــدِيقَهَا وشَـقِيقَهَا
وَأَبًـــا حَنُونًـــا كُلُّـــهُ إِكْـــرَامُ
كُــنْ رَاعِيًــا لِلْبَيْــتِ يُــصْلِحُ أَمْــرَهُ
بِـــاللِّينِ لَاعَنَـــتٌ وَلَا إِرْغَـــامُ
ثِـــقْ فِي أَمَانَتِهـــا وَقَـــدِّرْ رَأْيَهَـــا
وَإِذَا اشْـتَكَتْ فَاسْـمَعْ وَأَنْـتَ هُمَـامُ
كُـــنْ حَامِيًـــا وَّمُرَبِّيًـــا وَّ مُوَاسِـــيًا
وَ بِـــهِ يَـــتِمُّ لِمَـــا تُرِيـــدُ تَمَـــامُ
وَكُـنِ الرَّفِيـقَ عَـلَى الطَّرِيـقِ مُوَافِقًـا
فَـــإِذَا الْحَيَـــاةُ سَـــعَادَةٌ وَّ وِئَـــامُ
وإِذَا بِبَيْــــتِكُمَا الــــسَّعِيدُ كَأَنَّـــــهُ
مِــــنْ قُـــوَّةٍ ومَتَانَـــــةٍ أَهْـــرَامُ
هٰـذَا حَـدِيثُ الْقَلْـبِ شِـعْرًا صُـغْتُهُ
ومِـــنَ الـــضُّلُوعِ لِفِكْـــرَتِي أَقْـــلَامُ
وَلَـئِنْ قَـضَيْتُ فَـإِنَّ رُوحِـي دَائِـمًا
لَكُـــمَا تَحِـــنُّ ، جَنَاحُهـــا حَـــوَّامُ
وعَلَـــيْكُمَا مِنِّـــي الـــسَّلَامُ تَحِيَّـــةً
عَنِّـــي تُـــتَرْجِمُ والـــسَّلَامُ خِتَـــامُ

(ديوان «الزورق الحائر» ص:٣٣).

إن المعاني التي شَمَلَتْها هذه الوصايا والتوجيهاتُ النثريّة والشعريّة المسرودة أعلاه مما لو أَخَذَ به الزوجان، لما خَسِرَا في حياتها الزوجية أيًّا مما يهويانه من الخير، ولما تَعِسَا كما تَعِسَ الأزواج في هذه الحياة المعاصرة التي أفسدتها الحضارة الغربية المعاصرة المتصرة التي حَوَّلت الحياةَ الزوجيةَ جَحِيمًا لا تُطَاق. وهي تتلخص في الطاعة وإرضاء الزوجين أحدهما للآخر، والحبّ والحنان، والأمانة والثقة، ومراعاة طموح الزوج، وتجاوب الأفكار، وتوافق الآراء، ومراعاة المشاعر، والرقة والصراحة، والمبالغة والتفنن في إرضاء الزوج، ولين الكلام، والحرص على التجمل والتطيب، والمحافظة على الأسرار، وتبادل الإجلال والإكرام، وعدم الاستماع لما يقول الوشاة، والاحتمال والصبر، والتأني وعدم التسرّع في المعاملات التي تهمهما، والتوكّل على الله واللجوء إليه في جميع ما ينوبهما من أحوال الفرح والترح، والتوسّع والبؤس، والتواضع والملاطفة، وتبادل الآراء والتشاور في جميع الأمور التي يحتاج فيها المرء إلى مداولة الرأي والأخذ بالمشورة، والثناء من كل منهما على الآخر، وتشجيع الزوجة للزوج وبالعكس، ووقوف أحدهما بجنب الآخر كالجندي عند نزول الأمراض والمصائب والأوضاع المُقْلِقَة.

إن الحياة الزوجية اليوم صارت عذابًا مُطْلَقًا؛ لأن كُلًّا من الزوجين استقلّ عن الآخر، وتَفرَّدَ برأيه، وفقد الطاعةَ المتبادلةَ، وتوافقَ الآراء، وتَخَلَّىٰ عن المسؤولية الزوجية الشاملة. ولن يَسْعَدَ الزوجان اليوم إلّا بما سَعِدَا به في الماضي، عندما كانا ملتزمين بتعليمات الإسلام، والأخلاق والعادات العربية الإسلامية التي كلها خير، وضمانُ أمان، وراحة واقتناع وسلام.

(تحريرًا في الساعة الثانية عشرة نهارًا من يوم الأحد: ١٦/شوال ١٤٣٩هـ الموافق ١/يوليو ٢٠١٨م).



أقصر طريق إلى سعادة الحياة الزوجية

في الحياة المعاصرة الملدوغة بسوءات الحضارة الغربية التي لاعَدَّ لها ولا حَدَّ، يشكو الرجالُ من زوجاتهم والزوجات من أزواجهن كثيرًا من المشاكل، التي يرجع مُعْظَمُها إلى عدم التوافق الزوجي الذي يعني أن يشعر كل من الزوجين بحاجته وسعادته وارتياحه واطمئنانه نحو الآخر ويعني تحمّلَ الزوجين كل منهما المسؤولية نحو الآخر، وأن يشعر كل منهما بالثقة نحو الآخر، وأن يتوافق دينيًّا وثقافيًّا وعاطفيًّا، فيُعَبِّر كل منهما عن حبه وإعجابه بالآخر، ويُثْنِي عليه في المناسبات التي تقتضي الثناءَ والإشادةَ والتشجيعَ، ولا يجوز السكوت عنه ظنًّا بأن الحب موجود في القلب فلا حاجة إلى الإفصاح عنه باللسان، وينبغي أن لايكتفي أحدهما نحو الآخر بإبداء الحب باللسان؛ بل يجب أن يُجَسِّده بالوجه، ولغة الجسد، وبالإيماءات، وحركات الجسم، مما يجعل عملية التواصل والترابط حسنة متينة متجذرة. كما يجب أن يتوافقا عقليًّا فيتواصلا بالكلام العادي، لسهولة التفاهم بينهما في شؤون الحياة عامّةً وأمور الأسرة خاصَّةً: أي في هموم العمل، وتربية الأولاد وتعليمهم، وخدمة الوالدين، وإدارة الأسرة والبيت، والتصرف الحكيم في الإنفاق، وترتيب المنزل، والحاجات العامة، والاهتمامات التي لايمكن حصرها، والأفكار والانفعالات التي لا يَعُدُّها عادٌّ.

التفاعلُ الزوجي يتأثر دائمًا بمستوى الكلام ومدى كونه لطيفا طيبًا ناعمًا، خاطبًا للودّ، مثيرًا لعواطف الودّ والتراحم، فكلما يتحدث الزوج مع الزوج بكلام حلو طيب ويجده مهتمًا بحديثه، ملتفتًا إليه بكل كيانه، يتفاعل معه تفاعلًا جميلًا إيجابيًّا. أما إذا وجده لاهيًا عنه، لا مُبَالِيًا به، يتفاعل معه تفاعلًا سلبيًّا قد يُؤَدِّي إلى سوء الظن والانفصال والقطيعة.

ونضوجُ الشخصية لدى الزوجين يساعد كثيرًا على تحقق التوافق الزوجي، فكلما كانا ناضجين شخصيةً، كانا أقدر على عيش الحياة الزوجية بسعادة وتناغم وانسجام وتوافق واستقرار؛ لأن النضج يُكْسِب صاحبَه الاتزان الانفعالي، والصبر الكامل لدى الشدائد، وضبط النفس عند الغضب وعند حدوث ما يؤدي إلى التوتر النفسي، والقدرة على التعامل مع كل الأمور بواقعية وموضوعية.

(البقية على ص ١٠١)

أبو أسامة نور
nooralamamini@gmail.com